حياة

شيخ الإسلام ابن تيميّة

تقي الدّين أحمد عبد الحليم الحرّاني الدمشقي

محاضرات ومقالات ودراسات

بقلم

علاّمة الشّام الشيخ محمّد بهجة البيطار

المكتب الإسلامي

حياة

شيخ الإسلام ابن تيمية

حياة

شيخ الإسلام ابن تيمية

تقي الدين أحمد عبد الحليم الحراني الدمشقي

محاضرات ومقالات ودراسات

بقلم

علامة الشام الشيخ محمد بهجة البيطار

المكتب الإسلامي

الطبعة الثالثة

١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

المكتب الإسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: إسلامياً

دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: إسلامي

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد،

فإننا نقدم هذه الطبعة الجديدة من كتاب حياة شيخ الإسلام ابن تيمية تأليف أستاذنا العلامة الشيخ محمد بهجة البيطار. بعد أن قمت بإعادة صفه والتعليق عليه بكلمات قليلة.

والكتاب قد لاقى الرواج والقبول من أهل العلم والمعرفة فللّه الحمد على ذلك. بعد أن طبعناه مرتين.

وكان من دأب أستاذنا أن يفوضنا بتوزيع ما يستحق من حقوق الطبع على المعاهد العلمية وقد رغب أبناؤه الأكارم بالاستمرار على هذه السنة الكريمة فجزاهم الله خيراً وأحسن مثوبتهم وعلى هذا جرى الأمر في كتاب «كلمات وأحاديث» في الطبعة الأولى والثانية.

غير أنني عزمت من هذه الطبعة على أن أدفع للاخوة الكرام ورثة أستاذنا حق التأليف ورجوتهم أن يتولوا صرفه حسب معرفتهم.

وفي كل الأحوال قد جمع الله لأستاذنا العالم المصلح الحسنات الثلاث التي وردت في حديث رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث:

صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1].

كما أضفت إليها «ذكريات» مع الشيخ بهجة البيطار والأستاذ ظافر القاسمي[2] تغمدهما الله برحمته.

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، انظر «صحيح الجامع الصغير» رقم ٨٠٥، و«ارواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» لأستاذنا الشيخ محمد ناصر الدين للألباني رقم ١٥٨٠.

(٢) انتقل إلى رحمة الله في باريس سنة ١٤٠٤ هـ الموافق ١٩٨٤، ونقل حيث دفن في دمشق.

مقدّمة المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العزيز الرحيم، القائل في كتابه الكريم: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾(١)

والصلاة والسلام على نبي الرحمة، ورسول الأمة، جامع الكلمة، نبينا محمد ﷺ، وعلى آله الأطهار، وصحبه الأبرار، ومن تبعهم بإحسان.

وبعد، فإن هذا الكتاب المسمّى بـ:

(حياة شيخ الإسلام ابن تيمية):

قد نفدت نسخه، وكان من منشورات المكتب الإسلامي للطباعة والنشر. واعتزم ولدي الروحي الأستاذ الفاضل زهير الشاويش مدير المكتب إعادة طبعه، لما رأى من الإقبال عليه، والرغبة في دراسته.

ففي طلائعه بيان ما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية. ففيه إيضاح ما كانوا عليه وما صاروا إليه بعد الإسلام من التوحيد الخالص، والعلم النافع والعمل الصالح(٢).

وقد أمدَّ الله تعالى ابن تيمية بكثرة الكتب، وسرعة الحفظ، وقوة الإدراك والفهم، وألف في أغلب العلوم التأليفات العديدة. وله الفتاوي المفصّلة، وحلّ المسائل المعضلة، وقد ذكر الحافظ الذهبي طائفة من مؤلفاته، وعدَّ منها كتاب

---

(١) سورة النور: آية ٥٦.

(٢) انظر «أخبار عمر» للأستاذين الجليلين علي وناجي الطنطاوي.

«بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» (١) أربع مجلدات، و «إثبات المعاد» وكتاب «ثبوت النبوات عقلاً ونقلاً» وكتاب «الرّد على الحلولية والاتحادية» وكتاب «الدرّة المضية في فتاوي ابن تيمية» وكتاب «إصلاح الراعي والرعية» ثم قال الذهبي: وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد (قال): وكان له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، وقلّ أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها أقوال المذاهب الأربعة. (٢)

ولما طُلب منه أن يكتب عقيدته فقال اكتبوا: وهو أن اعتقاد أهل السنة والجماعة: الإيمان بما وصف الله به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

وأما قضية الطلاق فهو في الإسلام لا يكون إلا عن ضرورة وبصيرة، وقد روي عن إبراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يستحبُّون أن لا يطلّقوا أزواجهم بالسُّنة إلا واحدة، ثم لا يطلّقون حتى تنقضي العدّة، وما كان أخسّ عندهم من أن يطلق الرجل ثلاث تطليقات. وقال مالك بن أنس: لا أعرف إلا واحدة.

رجوع المحاكم الشرعية إلى الطلاق الشرعي

وختمنا هذا البحث بما جاء في القانون المصري للمحاكم الشرعية من المقرّرات، وهي منطبقة تمام الانطباق على ما قدمنا من مذهب الشيخين ابن تيمية وابن القيم والله أعلم. (٣)

ترجيحه لمذهب السلف في أمر المعتقد

كان الإمام ابن تيمية رحمه الله ينصر مذهب السلف الصالح بأدلة عقلية ونقلية، ويرى رأي إمام دار الهجرة مالك بن أنس: «من أنه لا يصلح آخر هذه

---

(١) طبع مؤخراً بتحقيق الدكتور رشاد سالم بـ(١١) مجلداً باسم «درء تعارض العقل والنقل».

(٢) وقد يسر الله لنا نشر ثلاثة كتب في ترجمة شيخ الإسلام، أولها: «الرد الوافر» لابن ناصر الدين الدمشقي، و«الأعلام العلية...» للبزار، و«ترجمة شيخ الإسلام» للاستاذ محمد كرد علي.

(٣) ثم تبعتها سورية بعد أن وضع أستاذنا الطنطاوي في قانون الأحوال الشخصية، ثم تتابعت كل البلاد العربية على ذلك ـــ الناشر ـــ

الأمة إلا ما أصلح أولها».

وهو رأي كل حكيم عليم بداء الأمة ودوائها قديماً وحديثاً. ثم تحقيقه لوحدة الأديان، وأخوّة الرسل الكرام عليهم من الله تعالى أزكى التحية والسلام، ومن تصفح كتب العهدين القديم والحديث، ومزامير داود وجدها طافحة بالدعوة إلى توحيد الله تعالى والوعيد الشديد على الشرك، مملوءة بالبشائر بظهور رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام. وانظر الشواهد على التوحيد الخالص من الشوائب (ص ٦٧و٧٦) وتليه مباحث العقل والنقل» وأن من خالف صحيح المنقول، فقد خالف صريح المعقول، والرُّدودُ عقلاً ونقلاً على الفِرَق المخالفة، ثم نقل عن الإمام أبي الحسن الأشعري، أن الإسلام يجمعهم فيعمّهم إلى (ص ١٠٦)، وله مجموعة تفسير مطبوعة بالغة (٤٨٠) صفحة ما عدا فهارسها المنوعة، وهي مما كتبه وهو منعزل عن الناس في خلوة السجن[1].

وبعد ذلك كله جرى حوارٌ بين إمامي السنّة والشيعة ابن تيمية وابن المطهر الحلي، مع مقدّمة بيّنا فيها أن أضرّ شيء في الأمة الواحدة هو العصبية الموروثة، والتفرّق الذميم، ﴿إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيَعاً لست منهم في شيء﴾.[2] وقد كان على من يعتقد العصمة للإمام علي عليه السلام أن يأخذ بأدبه وهَدْيه، ويقف من محاربيه عند حدود أمره ونهيه، وها هي ذي أقواله وأعماله في «نهج البلاغة»[3] وغيره:

لقد بايع كرّم الله وجهه للأئمة الثلاثة من قبله، وتنازل ولده الحسن عن الخلافة لمعاوية من بعده، وأصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، طبقاً لما أخبر به جدّه الصادق الأمين، عليه وآله أتم الصلاة والتسليم، وقال عن الخوارج: قوم بغوا علينا فقاتلونا وقاتلناهم، ولم يرمهم بالكفر ولا بالنفاق. ثم دار الحوار بين الإمامين في إمامة الخلفاء الأربعة، وفي اتباع أرباب المذاهب الأربعة.

ثم ملحق للحوار بين السنة والشيعة في حقائق الذات الإلهية وصفاته التي لا

(١) وقد نشرنا بحثاً للاستاذ إبراهيم بركة باسم: «ابن تيمية وجهوده في التفسير».
(٢) الأنعام: الآية ١٥٩.
(٣) أي ما صح في النهج له رضي الله عنه.

يعلمها إلا هو سبحانه.

وبعده ملحق آخر، وهو مقدمة في أصول التفسير للإمام ابن تيمية أملاها من فؤاده كما قال، وهي تريك صفحة ناصعة من دراسة سلفنا للقرآن الكريم وفهمه (مطبوعة بدمشق) [١].

وبعده شذرات من كلام الإمام ابن القيم في التوحيد الخالص من جميع الشوائب.

ثم جواب لي حول مقال النصير الطوسي والوزير ابن العلقمي، والإمام ابن تيمية وله ذيل طويل في موضوعه.

وأضفت إلى ما تقدم أجوبتي وردّي لمطاعن الكتاب المسمّى (الإسلام) تأليف: الفريد غيوم، وترجمة محمد مصطفى هدّارة [٢]، والدكتور شوقي اليماني السكري، وهذا الكتاب مؤلف من عشرة فصول في عرب الجاهلية وحياة الرسول ﷺ، والقرآن، والإمبراطورية الإسلامية، وحديث الرسول ﷺ، والسادس إلى العاشر في الفِرَق الإسلامية، والفلسفة ونشأة العقائد والتصوف والإسلام في العصر الحديث، وختمها بصلة الإسلام بالمسيحية. وإن المترجمين الكريمين قد ملكا ناصية البيان العربي، وقد قدّما له مقدمة عرّفا فيها القارىء بالمؤلف، وأنه رئيس القسمين الأدنى والأوسط بمدرسة اللغات الشرقية وأستاذ اللغة العربية بجامعة لندن. وقد دفع إليّ مجمعنا العلمي هذا الكتاب، فقرأته بدقة وإمعان، فوجدت ما تركه المعلّق من الأغلاط أكثر مما ذكره، فلم يسعني إلا أن أوجه أنظار المؤلف والقراء إلى الخطيئات التي لا يصح السكوت عنها.

وقد وردني كتاب من هذا المستشرق الكبير باللغة الانكليزية ـــ عدا كلمات بالعربية ـــ وقد تُرجم لنا.

استهلّه الكاتب بقوله: زميلي العزيز (وهو عضو في مجمعنا العلمي) وقد ضمنه أنه ناقل (عن مدرسة سيد أحمد خان) توجيه النظر إلى الأضرار الاجتماعية الناجمة عن تعدد الزوجات والطلاق والرق.

وأقول: إن الصديق العزيز الأستاذ خليل مردم بك ـــ رحمه الله ـــ هو الذي

---

(١) ثم حققها عن مخطوطة المكتب الإسلامي الدكتور عدنان زرزور.

(٢) عميد كلية الأدب في جامعة الاسكندرية الأستاذ الفاضل الدكتور.

عهد إليّ بالكتابة عليه، جرياً على عادة مجمعنا العلمي في تحويل الكتب الدينية إليّ، فاقتصرت على ما كتبه حول القرآن الكريم وأجبت عن المسائل الثلاث: تعدد الزوجات، والطلاق، والرّق، ولم أسندها إلى المؤلف.

وختمت بهذا الموضوع الكتاب كله، وبيّنت الحكمة في تعدد أزواج الرسول ﷺ بعد الهجرة، وبخلاصة ما يجب للمرأة وعليها، وأعدُّ هذين المبحثين من تمام دفاع الإمام ابن تيمية عن الإسلام، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

دمشق في ١٥ ذي العقدة ١٣٩١.

الموافق ١ كانون الثاني ١٩٧٢.

محمد بهجة البيطار



تمهيد

الحمدلله الولي الحميد، الهادي إلى دين التوحيد، في كتاب ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾(١) سبحانك لا نحصي ثناءاً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، وأنى للعبد الضعيف أن يحصي ثناءاً على ربّه، اللهم صل على نبينا محمد النبي العربي العالمي، وآته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً تزلف به قربَه، وتقرُّ به عينه، و يغبطه به الأولون والآخرون، وارض اللهم عن آله الأطهار، وأصحابه المهاجرين منهم والأنصار، ومن تبعهم بإحسان.

وبعد فقد كنت نشرت فصولاً في مجلدات مجمعنا العلمي بدمشق، في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، ثم طبعت تلك الفصول مستقلة في الجزء الثاني من محاضرات المجمع العلمي الذي طبع عام (١٣٧٣هـ-١٩٥٤م) من بعد أن حاضرت فيها في قاعة المجمع. وهذه الفصول والعلاوات، أولها تاريخي علمي، تتضمن دفع الفرية التي وردت في رحلة ابن بطوطة، عن حديث نزول الرب كل ليلة إلى سماء الدنيا، وأنه قال ــ وهو يخطب الجمعة على منبر دمشق ــ: كنزولي هذا، ورددناها بثلاثة أمور:

(الأول) أن ابن تيمية لم يكن خطيب المسجد، بل كان واعظاً ومدرساً.

(والثاني) أن ابن بطوطة لم يره ولم يجتمع به، إذ كان وصول ابن بطوطة إلى دمشق في أواخر شهر رمضان سنة (٧٢٦هـ) وابن تيمية دخل قلعة دمشق في أوائل شعبان (٧٢٦هـ) ولبث فيها إلى أن توفاه الله تعالى (٧٢٨هـ).

(والثالث) أنه ذكر حديث النزول في مواضع من كتبه ولم يقل فيها: كنزولي

---

(١) سورة فصلت الآية ٤١.

هذا[1].

العلاوة الثانية في اختياراته، ومنها قضية الطلاق في الإسلام.

(٣) ترجيحه لمذهب السلف في أمر المعتقد.

(٤) تحقيقه لوحدة الأديان، وأخوة الرسل الكرام، عليهم السلام.

ثم رأيت لبعض مؤرخي عصرنا المحققين ألا وهو صديقنا الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة كتاباً مستقلاً في حياة الشيخ، وفيه مباحث تاريخية علمية دينية، تتعلق بسيرته رحمه الله، وفيها وهمٌ واشتباه، فكان عليّ أن أنبه إلى ذلك، لتكون حياته الطيبة خالية من الشوائب التي علقت بها، وإن لم يكن معصوماً، ولتكون علاوة خامسة على العلاوات الأربع التي نشرت مع المحاضرة، وإن جاءت هذه في الأول (فمنها) دعوى منعه زيارة القبور، لاسيا قبور الصالحين، وأعظمها قبور الأنبياء والمرسلين، لاسيا خاتم النبيين، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم، وقد أجاب ابن تيمية عن هذا بقلمه، ودفع الفرية بنفسه، فقال: «إن السفر إلى مسجده وزيارة قبره — كما يذكره أئمة المسلمين في مناسك الحج — عمل صالح مستحب، بل هذا من أفضل الأعمال الصالحة، ولا في شيء من كلامي وكلام غيري نهي عن ذلك، ولا نهي عن المشروع في زيارة قبور الأنبياء والصالحين، ولا عن المشروع في زيارة سائر القبور، بل قد ذكرت في غير موضع استحباب زيارة القبور، كما كان النبي ﷺ يزور سكان البقيع وشهداء أحدُ، وإذا كانت زيارة قبور عموم المؤمنين مشروعة، فزيارة قبور الأنبياء والصالحين أولى»[2].

وقد ذكر في كتاب «التوسُّل والوسيلة»[3] كيفية الزيارة وأدبها، وكذا في كثير من رسائله، وإنما منع أمرين اثنين: الزيارة الشركية المبتدعة، وشدّ الرحل لمجرَّد الزيارة — أي بلا نية شدّ الرحل إلى المسجد النبوي والصلاة فيه —

وقد وهم بعض المؤرخين فظن أن الروضة هي بيت السيدة عائشة الذي دُفن فيه النبي ﷺ، أو هو جزء منها، والصواب أنها بين منبره وبيته، كما هو نص

---

(١) ص ١٤ و١٥ من الجـ ب الباهر في زوار المقابر المطبوع.

(٢) بل شرح حديث النـ ول بمجلد كبير طبعته وخرج أحاديثه الشيخ ناصر الدين الألباني، وليس فيه هذا اللفظ.

(٣) وهو من مطبوعاتنا.

الحديث الصحيح: «ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة» والصلاة فيها مطلوبة، ولا دخل للقبر الشريف في مكان الصلاة أصلاً، ولم يكن بيت عائشة أم المؤمنين مصلّى للناس في عهده ﷺ، فكيف بعد أن دفن فيه، وقد قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».[1]

اتّهم شيخ الإسلام بتشبيه الله تعالى بخلقه أو التجسيم، على كثرة ردوده على المشبِّهة والمجسمة، كما كان يرد على القدرية والجهمية والمعتزلة، وغيرهم من المؤولة والمعطلة، وهو لا يزيد على ما وصف الله تعالى به نفسه في مثل قوله: ﴿ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير﴾[2] فقد أثبت في هذه الآية لنفسه ذاتاً وصفات وفيها التنزيه عن المماثلة، وهو سبحانه كما وصف نفسه بقوله: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾[3] أي إنه سبحانه أرفع المخلوقات ذاتاً وصفات، وأعظمها شأناً، وأعزها سلطاناً، وكلُّ شيء محتاج إليه، وهو مستغنٍ عما عداه، وهو مالك العرش ومدبره، فهو مستول على عالم الأجسام، وأعظمها العرش، كما هو مستول على عالم الرُّوحانيات وهي مسخّرة له.

ألا وإن هذا العصر الذي نعيش فيه، هو عصر الصعود والارتفاع، عصر الأقمار الصناعية والصواريخ، يتبارى الشرق والغرب في إطلاق هذه الكواكب المصطنعة في الفضاء، فترتفع في الساعة الواحدة ألوفاً كثيرة من الأميال، ولكنها مهما علت فلن تبلغ السماوات العلى، لأن بيننا وبينها ملايين الأميال، فأين سرعة هذه الأقمار الأرضية والصواريخ من سرعة هذا الضوء أو النور الإلهي ﴿الله نور السماوات والأرض﴾.[4] وقد صرح بعض أقطاب الفلك بأن سرعة الضوء قد قدرت بثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية، وأن الضوء في سرعته هذه يطوف المحيط الأرضي الإستوائي ــ وهو أطول من محيط الأرض ــ يطوفه سبع مرات ونصف المرة في ثانية واحدة، وضوء الشمس يصل إلى الأرض بثماني دقائق واثنتي عشرة ثانية على بعدها الشاسع عنا، البالغ (١٤٩) مليون كيلو متراً، على أن هذه المسافة

---

(١) انظر «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» للشيخ ناصر الدين الألباني، وهو من مطبوعاتنا.

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

(٣) سورة غافر: الآية ١٥.

(٤) سورة النور: الآية ٣٥.

بيننا وبين الشمس لا يقطعها قطار سرعته (٩٠) كيلو متراً في الساعة إلا بمدة (١٧٧) سنة. والله تعالى عال فوق سماواته ومخلوقاته، لا يحلّ فيهم، ولا يمتزج بهم، وعلمه وسمعه وبصره وقدرته مدركة لكل شيء، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾[1].

قال عبد الرحمن ابن أبي حاتم: سألت أبي وأبا زرعة رحمهما الله تعالى عن مذهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك؟ فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار، حجازاً وعراقاً ومصر وشاماً ويمناً، فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه، بائن من خلقه بلا كيف، أحاط بكل شيء علماً.

قال صديقنا الاستاذ أبو زهرة: هل العبارات المروية عن أولئك الأئمة الأعلام صريحة في إثبات جهة العلوّ والاستواء بمعنى من جنس معنى الجلوس؟ وأجاب بقوله: إن العبارات المروية عنهم إلى التفويض أقرب منها إلى التفسير، وإبداء الرأي في معنى معين.

والجواب: أنّا قدمنا بعض العبارات الصريحة لأولئك الأئمة الأعلام في إثبات صفة العلو المطلق (لا النسبي) لله تعالى على خلقه، وأنه عال على عرشه، ومستغنٍ عنه كاستغنائه عن سائر المخلوقات، فلا جلوس، ولا مماسّة ولا استقرار، وأما التفويض ففي الكيفية، لا في أصل المعنى. كما اشتهر عن الإمام مالك قوله: الاستواء معلوم والكيف مجهول، أي: إن معنى (الاستواء) معلوم، وهو العروج والصعود والارتفاع، ولكن الكيفية مجهولة، وحسبنا في ذلك قصة المعراج وهي متواترة، وفيها تجاوز النبي ﷺ السماوات سماء سماء، حتى انتهى إلى ربه تعالى، فقرَّبه وأدناه، وفرض عليه الصلوات.

وقد اعتذر الاستاذ أبو زهرة عن دراسة كتاب «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لكيلا يشغله عما هو فيه من دراسة فقه الإمام.

(وأقول): إني قد درست هذا الكتاب دراسة مفصلة، وكتبت عنه في مجلة مجمعنا العلمي فصلاً مطولاً، في جملة الفصول التي نشرتها عنه في المجلة، في بضع

---

(١) سورة الحديد: الآية ٤.

سنين.

وأما الاستغاثة بالحضرة المحمدية بعد الموت ــ التي تعرض لها صديقنا المنوّه بفضله ــ فقد أجاب عنها الإمام ابن تيمية في كتاب «التوسل والوسيلة» بقوله: ولو كانت الاستغاثة بعد الموت ثابتة ثبوتها في الحياة، لطُلب من النبي ﷺ أن يقوم بالإمامة في الصلاة، والإمارة في الغزو، وإرسال البعوث وعقد الألوية، والشعائر في الحرب، وإقامة الحدود، وإيصال الحقوق، وقسم المواريث والغنائم، والفيء والصدقات الخ..

وأقول ــ تأييداً لما ذكره شيخ الإسلام ــ: إن الصحابة الكرام قد تناظروا بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، في أمر الخلافة، وفي جمع القرآن، وفي المعارك الدامية كوقعة الجمل وصفين والنهروان، وتناظر الشيخان في قتال مانعي الزكاة، وفي إرسال جيش أسامة، ولم يستغيثوا به في هذه الشدائد، ولم يستفتوه في شيء منها، وكل هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة، ومن العقل والحس والوجدان بالبداهة، فيجب رد ما يتجدد من الوقائع والحوادث إلى الوحي المنزل، وما عرف من سنن الصدر الأول للإسلام.

تصحيح: جاء في أواخر هذا الكتاب (الشيخ أبو زهرة) الذي نوهنا به في هذا المقال ــ في ابن تيمية ــ استطراد، ذكر فيه أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب تزوج ببنت الأمير محمد آل سعود، والصواب أنه (رحمه الله) قد تزوج بجوهرة بنت عثمان بن معمر، كما ترى في الكتب التي ترجمت له.



شيخ الإسلام ابن تيمية

ليس في وسعي أن أحيط وصفاً بمواهب علامة الشرق الإمام أحمد المعروف بابن تيمية الحرّاني الدمشقي، فقد طبق الأرض في عصره علماً وإصلاحاً، وملأ الكون صدعاً بالحق وجهاداً، وسارت بعلومه الركبان، وعطر أريج شمائله وأعماله الأرجاء.

وفي أرض دمشق غرست شجرة الإصلاح بيد ابن تيمية فأثمرت ونضجت، ومن سمائها سطعت شمس السنّة الغراء، فأضاءت وعمّت، وفي أجوائها علت صيحة الحق، ففزعت جيوش البدع والأوهام، وليس من غرضي أن أذكر كل ما قيلَ في ترجمة هذا النابغة الكبير، فهو كما قال الحافظ الذهبي: «أعظم من أن تصفه كلمي، أو ينبه على شأوه قلمي» فإن سيرته وعلومه، ومعارفه ومحنه، وتنقلاته، يحتمل أن توضع في مجلدين، وإنما القصد أن نقتبس من نور خدمته العلمية ما ينير لنا طريق الحياة في سيرنا العلمي.

مولده ومنشؤه وتحصيله ومؤلفاته

قال العلامة الألوسي صاحب جلاء العينين (ص ٤): في تاريخ مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي، وتاريخ الحافظ ابن حجر العسقلاني شارح البخاري، وتاريخ الحافظ ابن كثير، وتاريخ فوات الوفيات للكتبي، وشذرات الذهب لابن العماد، وتاريخ ابن الوردي، وغيرهم: هو شيخ الإسلام، وحافظ الأنام، المجتهد في الأحكام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد السلام بن عبدالله بن أبي القاسم

(*) محاضرة ألقيت في قاعة المجمع العلمي العربي في نيسان سنة ١٩٢٣، ثم نقحت وأضيف إليها صفحات في تاريخ هذا الإمام العظيم، رحمه الله.

ابن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي، وفي تاريخ اربل[1] أن جده سئل عن اسم (تيمية) فأجاب أن جده حج وكانت امرأته حاملاً فما كان بتيماء ــ بلدة قرب تبوك ــ رأى جارية حسنة الوجه وقد خرجت من خباء، فلما رجع وجد امرأته قد وضعت جارية فلما رفعوها إليه قال: يا تيمية، يا تيمية، يعني أنها تشبه التي رآها بتيماء، فسمي بها انتهى. وفي «فوات الوفيات»: وقال ابن النجار: ذكر لنا أن محمداً هذا (أي الجد الأعلى لابن تيمية) كانت أمه تسمى تيمية وكانت واعظة فنسب إليها وعرف بها أهـ. ولد بحران[2]. يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وقدم به والده بأخويه عند استيلاء التتار على البلاد إلى دمشق سنة سبع وستين وستمائة، فأخذ الفقه والأصول عن والده، وسمع من خلق كثيرين منهم الشيخ شمس الدين، والشيخ زين الدين ابن المنجا، والمجد ابن عساكر، وقرأ العربية على ابن عبد القوي، ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمله وفهمه، وعني بالحديث، وسمع الكتب الستة والمسند مرات، وأقبل على تفسير القرآن الكريم، فبرز فيه، وأحكم أصول الفقه والفرائض والحساب والجبر والمقابلة وغير ذلك من العلوم، ونظر في الكلام والفلسفة وبرز في ذلك على أهله، وردّ على رؤسائهم وأكابرهم، وتأهل للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة، وتضلع في علم الحديث وحفظه حتى قالوا: إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث، وأمده الله تعالى بكثرة الكتب وسرعة الحفظ وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان، حتى قال غير واحد: إنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه، وألف في أغلب العلوم التأليفات العديدة، في التفسير والفقه والأصول، والحديث والكلام والردود على المبتدعة، وله الفتاوى المفصلة، وحل المسائل المعضلة وقد ذكر طائفة من مؤلفاته وعدّ منها كتاب «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» أربع مجلدات، و«إثبات المعاد» وكتاب «ثبوت النبوات عقلاً ونقلاً»، وكتاب «الرد على الحلولية والاتحادية»، كتاب «الدرة المضية في فتاوى ابن تيمية»، وكتاب «إصلاح الراعي والرعية»، ثم قال الذهبي: وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد أهـ. وقال الحافظ الذهبي: إنه نشأ في تصوُّن تام وعفاف،

(١) بلدة في شمال العراق تقع إلى الشرق من الموصل.

(٢) حران: بلدة قرب الرها (أورفة): من أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وهي من بلاد الأناضول الآن، وقد توهم من جعلها شرقي وتسعد كالمنجد وغيره.

وتأله وتعبد، واقتصاد في الملبس والمأكل، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، و يناظر و يفحم الكبار، و يأتي بما يحار منه أعيان البلد في العلم، فأفتى وله تسع عشرة سنة بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال، ومات والده وكان من كبار أئمة الحنابلة، فخلفه في وظائفه وله إحدى وعشرون سنة، واشتهر أمره و بعد صيته في العالم، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع من حفظه، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم وذلك بتؤدة وصوت جهوري فصيح، وكان آية في الذكاء وسرعة الادراك، رأساً في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف، بحراً في النقليات، فريد عصره علماً وزهداً وشجاعة وسخاء، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وكثرة تصانيف، وقرأ وحصل و برع في الحديث والفقه وتأهل للتدريس والفتوى وهو ابن سبع عشرة سنة، وتقدم في علم التفسير والأصول، وجمع علوم الإسلام أصولها وفروعها ودقيقها وجليلها، (إلى أن قال): وكان له باع طو يل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، وقلّ أن يتكلم في مسألة إلا و يذكر فيها أقوال المذاهب الأ ربعة.

ثناء الأئمة عليه

قال العلامة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي في كتابه «الكواكب الدرية»[1] الذي ألفه في مناقب الإمام ابن تيمية: قد أكثر أئمة الإسلام، من الثناء على هذا الإمام، كالحافظ المزي، وابن دقيق العيد، وأبي حيان النحوي، والحافظ ابن سيد الناس، والحافظ الزملكاني، والحافظ الذهبي وغيرهم من أئمة العلماء.

وقال الحافظ المزي: ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه.

وقال القاضي أبو الفتح ابن دقيق العيد: لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد و يدع ما يريد، وقلت له: ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثلك! وقال الشيخ إبراهيم الرقي: إن تقي الدين يؤخذ عنه و يقلد في العلوم فإن طال عمره ملأ الأرض علماً وهو على الحق، ولا بد من أن يعاديه

(١) من «مجموع: الرد الوافر» وما معه من الرسائل طبع مصر سنة ١٣٢٩ هـ.

الناس، لأنه وارث علم النبوة، وقال قاضي القضاة ابن الحريري: إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن هو؟. وقال فيه شيخ النحاة أبو حيان لما اجتمع به: ما رأت عيناي مثله، ثم مدحه أبو حيان على البديهة في المجلس وقال:

لما أتينا تقي الدين لاح لنا ... داع إلى الله فرداً ما له وزر
على محياه سيما الألى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر
حبر تسربل منه دهرنا حِبَراً ... بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا ... مقام سيد تيم إذ عصت مضر
وأظهر الحق إذ آثاره درست ... وأخمد الشر إذ طارت له شرر
كنا نحدث عن حبر يجيء فها ... أنت الإمام الذي قد كان ينتظر

وقال الحافظ الزملكاني: قد أعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة والترتيب، والتقسيم والتبيين، وقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد. كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله (إلى أن قال):

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلّت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر

وقال عماد الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي عنه: انموذج الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، الذين غابت عن القلوب سيرهم، نسيت الأمة حذوهم وسبيلهم، فكان في دارس نهجهم سالكاً، ولأعنة قواعدهم مالكاً. وقال في ذيل الصفحة الرابعة من كتاب «القول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي»: ومما وجد في كتاب كتبه قاضي القضاة أبو الحسن السبكي إلى الحافظ الذهبي في الشيخ تقي الدين ما صورته: وأما قول سيدي في الشيخ فالمملوك متحقق كبر قدره، وزخارة بحره، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف، والمملوك يقول ذلك دائماً، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل، مع ما جمع الله له من الورع والزهادة والديانة ونصرة الحق، والقيام فيه لا لغرض سواه، وجريه على سنن

السلف، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان. انتهى.

زهده وإيثاره

قال ابن فضل الله العمري: كان يجيئه من المال في كل سنة ما لا يكاد يحصى، فينفقه جميعه آلافاً ومئين لا يلمس منه درهماً بيده، ولا ينفقه في حاجته، بل كان إذا لم يقدر يعمد إلى شيء من لباسه فيدفعه إلى السائل، وهذا مشهور عند الناس من حاله.

حكى من يوثق به قال: كنت يوماً جالساً بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية فجاءه إنسان، فسلم عليه فرآه الشيخ محتاجاً إلى ما يعتم به فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل، فقطعها نصفين واعتم بنصفها ودفع النصف الآخر لذلك الرجل، ولم يحتشم للحاضرين عنده. وحدث من يوثق به أن الشيخ كان ماراً في بعض الأزقة فدعا له بعض الفقراء، وعرف الشيخ حاجته ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه، فنزع ثوباً على جلده ودفعه إليه وقال: بعه بما تيسر وأنفقه، واعتذر إليه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقه أهـ.

شجاعة الإمام وغيرته على الدين والوطن

أراد ملك الكرج أن يفتك بسكان دمشق من المسلمين، و يسبي ذراريهم ونساءهم، فبذل للسلطان غازان ــ وهو أول من أسلم من ملوك المغول ــ أموالاً طائلة على أن يمكنه منهم، فلما اتصل الخبر بالإمام قام من فوره، وانتدب رجالاً من الوجوه والكبراء وذوي الأحلام الرجيحة وإليك خلاصة ما جرى بأخبار من كان حاضراً ولا ينبئك مثل خبير:

قال في «الكواكب الدرية»: قال الشيخ كمال الدين بن المنجا: كنت حاضراً مع الشيخ، فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره، و يرفع صوته على السلطان، و يقرب منه في أثناء حديثه، حتى لقد قرب من أن تلاصق ركبة السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته، مصغ لما يقول، شاخص إليه، لا يعرض عنه، وان السلطان مع شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة

سأل: من هذا الشيخ فإني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه؟ فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل، فقال الشيخ للترجمان: قل لغازان: أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا، فغزوتنا، وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت: عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وجرت، ثم خرج من بين يديه مكرماً معززاً. بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه الله تعالى ما أراده، وكان سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم. وردهم على أهليهم، وحفظ حريمهم، وكان يقول: لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه.

وأخبر قاضي القضاة أبو العباس أنهم لما حضروا مجلس غازان قدم لهم طعام، فأكلوا منه إلا ابن تيمية فقيل: لمَ لمْ تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس. ثم أن غازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللهم إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وجاهد في سبيلك أن تؤيده وتنصره، وإن كان للملك والدنيا والتكاثر أن تفعل به وتصنع. وقد ذكر الكثي شجاعة الإمام أنه شكا إليه إنسان من قطلوبك الكبير وظلمه له وكان فيه جبروت وأخذ أموال الناس واغتصابها ـــ وحكاياته في ذلك مشهورة ـــ فدخل عليه الشيخ وتكلم معه، فقال له قطلوبك: أنا كنت أريد أن أجيء إليك، لأنك عالم زاهد يعني يستهزىء به. فقال له: موسى كان خيراً مني وفرعون كان شراً منك، وكان موسى يجيء إلى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات، و يعرض عليه الإيمان.

ومن مساعيه المشكورة في خدمة أبناء الملل السماوية سعيه في إطلاق أسرى المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء، وإصراره على ذلك، ولم يرض باطلاق أسارى المسلمين فقط (وإنما فعل ذلك عملاً بقواعد دينه العام، الذي يوجب المساواة في الحقوق والأحكام، بين جميع من يظلهم الإسلام) وإليك شذرة مما كتبه في الرسالة القبرصية خطاباً لسرجوان ملك قبرص قال: (١)

(١) «ص ١٢» والرسالة مطبوعة بمطبعة المؤيد بمصر سنة ١٣١٩ هجرية.

ونحن قوم نحب الخير لكل أحد، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة، فإن أعظم ما عبد الله به نصيحة خلقه، وبذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين، ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه، فإنه لا بد للعبد من لقاء الله، ولا بد أن الله يحاسب عبده كما قال تعالى: ﴿ فلنسألنَّ الذين أرسل إليهم ولنسألنَّ المرسلين ﴾[1] (إلى أن قال):

وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم غازان وقطلوشاه، وخاطبت مولاي فيهم فسمح باطلاق المسلمين قال لي: لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يطلقون، قلت له بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، فإنا نفكّهم ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة، وأطلقنا من النصارى من شاء الله، فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله.

وكذلك السبي الذي بين أيدينا من النصارى يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم كما أوصانا خاتم النبيين أهـ.

ومن شجاعته ما حكاه في الكواكب قال: لما وشوا به إلى السلطان الأعظم الملك لناصر لدين الله، وأحضره بين يديه قال من جملة كلامه: إنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس وأن في نفسك أخذ الملك، فلم يكقرث به، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت، وصوت عال سمعه كثير ممن حضر: أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغل لا يساوي عندي فلساً. فتبسم السلطان لذلك، وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة: إنك والله لصادق، وإن الذي وشى بك إليّ لكاذب، واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة ما يلقى إليه في حقه من أقاويل الزور والبهتان، ممن ظاهر حاله العدالة، وباطنه مشحون بالفسق والجهالة.

محن ابن تيمية ونبذة من عقيدته الحموية

قال العلامة الشيخ مرعي في «الكواكب»: [2] قلّ من يسلم من أهل الفضل

---

(١) سورة الأعراف: آية ٦.

(٢) ص ١٦٧ من «المجموع المطبوع» وهو تحت الطبع عندنا ـ زهير ـ.

والدين في هذه الدنيا بلا محنة وابتلاء وخوض فيه، لأنه لم يداهن الناس و يصانعهم، ولذا قل صديقه على حد قوله: (ما ترك الحق من صديق لعمر) وقال سفيان الثوري: إذا رأيت الرجل يثني عليه جيرانُه فاعلم أنه مداهن.

(قال): وما وقع الائمة كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والبخاري مشهور كما بينته في كتابنا «تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين» (ثم قال): هذا وشيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ امتحن بمحن، وخاض فيه أقوام، ونسبوه للبدع والتجسيم، وهو من ذلك بريء. فأول محنة كما نقله الثقات في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة بسبب عقيدته الحموية الكبرى، وهي جواب سؤال ورد من حماة فوضعها ما بين الظهر والعصر في ست كراريس بقطع نصف البلدي، فجرى له بسبب تأليفها أمور ومحن لترجيحه مذهب السلف على مذهب المتكلمين وتشنيعه عليهم (فمن بعض قوله في مقدمتها): ما قاله الله سبحانه ورسوله ﷺ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وما قاله أئمة الهُدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وفي غيره. ومن المحال أن يكون خير أمة وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه، ثم من المحال أيضاً أن تكون القرون الفاضلة قرن الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين، قال: ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين، وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات.

وقال: فهذا الظن الفاسد أوجبه اعتقاد أنهم كانوا أميين بمنزلة الصالحين من العامة لم يتحروا في حقائق العمل بالله، ولم يتفطنوا لدقيق العلم الإلهي، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله، كيف يكون هؤلاء المتأخرون لا سيما والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابهم، وغلظ عن معرفة الله حجابهم، وأخبر الواقف على نهاية إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم، يقول الإمام فخر الدين الرازي:

لعمري لقد طفتُ المعاهِدَ كلها ... وسيّرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أرَ إلا واضعاً كفّ حائرٍ ... على ذَقنٍ أو قارعاً سنّ نادم

وأقروا على أنفسهم بما قالوه متمثلين به ومنشئين له فيما صنفوه من كتبهم، مثل قول بعض رؤسائهم:

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

و يقول آخر منهم: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾(١)، ﴿الرحمن على العرش استوى﴾(٢) وأقرأ في النفي: ﴿ليس كمثله شيء﴾(٣)، ﴿ولا يحيطون به علماً﴾(٤) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. ويقول الآخر منهم: «لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لفلان وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي» أ هـ.

* مناظرته رحمه الله *

كان شيخ الإسلام يرجح في أمر المعتقد مذهب السلف الصالح، و يعض عليه بالنواجذ، ويحاول إرجاع الناس إليه بكل الوسائل، و يرى رأي إمام دار الهجرة مالك بن أنس من أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وهو رأيُ كل حكيمٍ عليم بداء الأمة ودوائها قديماً وحديثاً. وكان شديد الانتصار لمذهب السلف والدفاع عنه بالحجج العقلية والنقلية، وقد عقدت له مناظرات في مصر والشام، كان معظمها يحوم حول هذه القضية، وقد كان سئل أن يكتب المناظرات الثلاث التي جرت له في الشام فكتبها. وإني أنقل منها المناظرة الثانية من كتاب «غاية الأماني» للعلامة أبي المعالي السلامي(٥) لتكون مثالاً من مناظراته قال: أما بعد فقد سئلت غير مرة أن أكتب ما حضرني ذكره مماجرى في المجالس الثلاثة المعقودة

---

(١) سورة فاطر: آية ١٠.

(٢) سورة طه: آية ٥.

(٣) سورة الشورى: آية ١١.

(٤) سورة طه: آية ١١٠.

(٥) هو العلامة السيد محمود شكرى الالوسي، كتبه في زمن لا يستطيع فيه اظهار اسمه.

للمناظرة في أمر الاعتقاد بمقتضى ما ورد من كتاب ذي السلطان من الديار المصرية إلى نائبه أمير البلاد، لما سعى إليه قوم من الجهمية والاتحادية والرافضة وغيرهم من ذوي الأحقاد، فأمر الأمير بجمع القضاة الأربعة قضاة المذاهب الأربعة، وغيرهم من نوابهم والمفتين والمشايخ ممن له حرمة وبه اعتداد، وهم لا يدرون ما قصد بجمعهم في هذا الميعاد، وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة، فقال لي: هذا المجلس عُقد لك، فقد ورد مرسوم من السلطان بأن أسألك عن اعتقادك، وعما كتبت به إلى الديار المصرية من الكتب التي تدعو بها الناس إلى الاعتقاد، وأظنه قال: وأن أجمع القضاة والفقهاء يتباحثون في ذلك فقلت: أما الاعتقاد، فلا يؤخذ عني ولا عمَّن هو أكبر مني، بل يؤخذ عن الله ورسوله ﷺ وما أجمع عليه سلف الأمة، فما كان في القرآن وجب اعتقاده، وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم، وأما الكتب فما كتبت إلى أحد ابتداء أدعو به إلى شيء من ذلك، ولكني كتبت أجوبة أجبت بها من سألني من أهل الديار المصرية وغيرهم، وكان بلغني أنه زوِّر عليّ كتاب إلى الأمير ركن الدين الجاشنكير أستاذ ذي السلطان يتضمن ذكر عقيدة محرفة، ولم أعلم بحقيقته لكن علمت أنه مكذوب.

وكان يرد عليّ من مصر وغيرها من يسألني عن مسائل في الاعتقاد فأجبته بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة، فقال: نريد أن تكتب لنا عقيدتك، فقلت: اكتبوا، فأمر الشيخ كمال الدين أن يكتب فكتب له جمل الاعتقاد في أبواب الصفات والقدر ومسائل الإيمان والوعيد والإمامة والتفضيل، وهو أن اعتقاد أهل السنة والجماعة الإيمان بما وصف الله به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، والإيمان بأن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه أمر بالطاعة وأحبها ورضيها، ونهى عن المعصية وكرهها، والعبد فاعل حقيقة، والله خالق فعله، وأن الإيمان والدين قول، وعمل، يزيد وينقص، وأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بالذنوب، ولا نخلد في النار من أهل الإيمان أحداً، وأن الخلفاء بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي.

(ثم قلت) للأمير: والحاضرين: أنا أعلم أن أقواماً يكذبون عليّ كما قد كذبوا غير مرة، وإن أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون: كتم بعضه أو داهن أو دارى، فأنا أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين، قبل أن يجيء التتر إلى الشام، وقلت قبل حضورها كلاماً قد بعُد عهدي به وغضبت غضباً شديداً، لكني أذكر أني قلت:

أنا أعلم أن أقواماً كذبوا عليّ وقالوا للسلطان شيئاً، وتكلمت بكلام احتجت إليه مثل أن قلت من قام بالإسلام أوقات الحاجة غيري؟ ومن الذي أوضح دلائله وبينه وجاهد أعداءه وأقامه لما مال، حين تخلى عنه كل أحد، ولا أحد ينطق بحجته، ولا أحد يجاهد عنه، وقمت مظهراً الحجة، مجاهداً عنه مرغباً فيه، فإذا (كان) هؤلاء يطمعون في الكلام فيَّ فكيف يصنعون بغيري؟! ولو أن يهودياً طلب من السلطان الإنصاف لوجب عليه أن ينصفه، وأنا قد أعفو عن حقي وقد لا أعفو بل أطلب الإنصاف منه وأن يحضر هؤلاء الذين يكذبون ليكافئوا على افترائهم.

وقلت كلاماً أطول من هذا الجنس لكن بعد عهدب به.

فأشار الأمير إلى كاتب الدرج محيي الدين أن يكتب في ذلك وقلت أيضاً: كل من خالفني في شيء مما كتبته فأنا أعلم بمذهبه منه.

ثم قُرئت العقيدة في الجلسة، فاعترض بعضهم على مسائل منها، فأجاب الشيخ عنها وكتبت هذه المناظرة الأولى بنحو ثماني صفحات، ثم قال شيخ الإسلام.

فصــل

فلما كان المجلس الثاني يوم الجمعة في اثني عشر رجب، وقد أحضروا أكبر شيوخهم ممن لم يكن حاضراً ذلك المجلس، وأحضروا معهم زيادة: (صفي الدين الهندي) وقالوا: هذا أفضل الجماعة وشيخهم في علم الكلام، وبحثوا فيما بينهم، واتفقوا وتعاطوا وحضروا بقوة واستعداد للمخاطب الذي هو المسؤول والمجيب والمناظر، فلما اجتمعنا وقد أحضرت ما كتبته من الجواب عن أسئلتهم المتقدمة الذي طلبوا تأخيره إلى اليوم حمدت الله بخطبة الحاجة خطبة ابن مسعود (رضي الله عنه) (ثم قلت) إن الله تعالى أمرنا بالجماعة والائتلاف ونهانا عن الفرقة والاختلاف، وقال لنا في القرآن: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾[1] وقال: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾[2] وقال: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾[3] ربنا واحد، وكتابنا واحد، ونبينا واحد، وأصول الدين لا تحتمل التفرق والإختلاف، وأنا أقول ما يوجب الجماعة بين المسلمين، وهو متفق عليه بين السلف، فإن وافق الجماعة، فالحمدلله، وإلا فمن خالفني بعد ذلك كشفت الأسرار، وهتكت الأستار، وبينت المذاهب الفاسدة التي أفسدت الملل والدول، وأنا أذهب إلى سلطان الوقت على البريد، وأعرفه من الأمور ما لا أقوله في هذا المجلس فإن للسلم كلاماً، وللحرب كلاماً، (وقلت): لا شك أن الناس يتنازعون، يقول هذا: أنا حنبلي، ويقول هذا: أنا أشعري، ويجري بينهم تفرق وفتن واختلاف على أمور لا يعرفون حقيقتها، وأنا قد أحضرت ما بين اتفاق المذاهب فيما ذكرته، واحضرت كتاب «تبيين كذب المفتري»[4] فيما ينسب إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري تأليف الحافظ أبي القاسم ابن عساكر (رحمه الله) (وقلت): لم يصنف في أخبار الأشعري المحمودة

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٠٣.
(٢) سورة الأنعام: آية ١٥٩.
(٣) سورة آل عمران: آية ١٠٥.
(٤) عني بنشره حسام الدين القدسي بدمشق سنة ١٣٤٧ هـ.

كتاب تمثل هذا وقد ذكر فيه لفظه الذي ذكره في كتابه «الإبانة»[1] فلما انتهيت إلى ذكر المعتزلة، سأل الأمير عن معنى المعتزلة فقلت: كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملي وهو أول اختلاف حدث في الملة: هل هو كافر أو مؤمن؟ فقالت الخوارج: إنه كافر، وقالت الجماعة: إنه مؤمن، وقالت طائفة: نقول: هو فاسق لا مؤمن ولا كافر، ننزله منزلة بين المنزلتين وخلدوه في النار، واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه (رحمه الله تعالى) فسموا معتزلة (وقال الشيخ الكبير) بجبته وردائه: ليس كما قلت، ولكن أول مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام، وسمي المتكلمون متكلمين لأجل تكلمهم في ذلك، وكان أول من قالها عمرو بن عبيد، ثم خلف بعد موته عطاء بن واصل، وبعد أن ردّ الإمام عليه خطأه قال: (قلت): الناس اختلفوا في مسألة الكلام في خلافة المأمون وبعدها في أواخر المائة الثانية، (وأما المعتزلة) فقد كانوا قبل ذلك بكثير في زمن عمرو بن عبيد بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية، ولم يكن أولئك قد تكلموا في مسألة الكلام ولا تنازعوا فيها، وإنما أول بدعتهم تكلمهم في مسائل الأسماء والأحكام والوعيد (فقال): هذا ذكره الشهرستاني في «الملل والنحل» فقلت: الشهرستاني ذكره في اسم المتكلمين لم سُمُّوا متكلمين، لم يذكره في اسم المعتزلة، والأمير إنما سأل عن اسم المعتزلة، وأنكر الحاضرون عليه، وقالوا غلطت، وقلت في ضمن كلام: أنا أعلم كل بدعة حدثت في الإسلام، وأول من ابتدعها وما كان سبب ابتداعها، وأيضاً فما ذكره الشهرستاني ليس بصحيح في اسم المتكلمين، فإن المتكلمين كانوا يسمون بهذا الاسم قبل منازعتهم في مسألة الكلام، وكانوا يقولون عن واصل بن عطاء: إنه متكلم، ويصفونه بالكلام ولم يكن الناس اختلفوا في مسألة الكلام، وقلت أنا وغيري: إنما هو واصل بن عطاء أي لا عطاء بن واصل كما ذكره المعترض (قلت): وواصل لم يكن بعد موت عمرو بن عبيد وإنما كان قرينه وقد روي أن واصلاً تكلم مرة بكلام، فقال عمرو ابن عبيد: لو بعث نبياً ما كان يتكلم بأحسن من هذا، وفصاحته مشهورة حتى قيل: إنه ألثغ وكان يحترز عن الراء حتى قيل له: أمر الأمير أن يحفر بئراً فقال: أوعز القائد أن يقلب قليب.

ولما انتهى الكلام إلى ما قاله الأشعري قال الشيخ المقدم فيهم: لا ريب أن

---

(١) وهو تحت الطبع في المكتب الإسلامي، بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني.

الإمام أحمد إمام عظيم القدر من أكبر أئمة الإسلام، لكن قد انتسب إليه أناس ابتدعوا أشياء.

(فقلت): أما هذا فحق، وليس هذا من خصائص احمد، بل ما من إمام إلا وقد انتسب إليه أقوام هو منهم بريء وقد انتسب إلى مالك أناسٌ مالك بريء منهم، وانتسب إلى الشافعي أناس هو بريء منهم، وانتسب إلى أبي حنيفة أناس هو بريء منهم، وقد انتسب إلى موسى عليه السلام أناس هو بريء منهم، وانتسب إلى عيسى عليه السلام أناس هو منهم بريء، وقد انتسب إلى علي بن أبي طالب أناس هو بريء منهم، ونبينا ﷺ قد انتسب إليه من القرامطة والباطنية وغيرهم من أصناف الملحدة والمنافقين من هو بريء منهم (قال) وذكر في كلامه أنه انتسب إلى أحمد من الحشوية والمشبهة ونحو هذا الكلام (فقلت): المشبهة والمجسمة في غير أصحاب الإمام أحمد أكثر منهم فيهم. وبعد أن عدَّ أصنافهم من الحنابلة (قال): وتكلمت عن لفظ الحشوية ما أدري جواباً عن سؤال الأمير أو غيره أو غير جواب، فقلت: هذا اللفظ أول من ابتدعه المعتزلة فإنهم يسمون الجماعة والسواد الأعظم (الحشو) (قال): وحشو الناس هم عموم الناس وجمهورهم، وهم غير الأعيان المتميزين يقولون: هذا من حشو الناس، كما يقال: هذا من جمهورهم، وأول من تكلم بهذا عمرو بن عبيد قال: أي عمرو: وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنه حشوياً.

(وقلت) لا أدري في المجلس الأول أو الثاني: أول من قال: إن الله جسم هشام بن الحكم الرافضي (قلت) لهذا الشيخ: من في أصحاب الإمام أحمد حشوي بالمعنى الذي تريده؟: الأثرم، أبو داود، المروزي، الخلال، أبو بكر، عبد العزيز، أبو الحسن التميمي، ابن حامد، القاضي أبو يعلى، أبو الخطاب، ابن عقيل، ورفعت صوتي وقلت: سمهم قل لي من هم؟ من هم؟؟ أبكذب ابن الخطيب وافترائه على الناس في مذاهبهم تبطل الشريعة وتندرس معالم الدين، كما نقل هو وغيره عنهم انهم يقولون: إن القرآن القديم هو أصوات القارئين ومداد الكاتبين وان الصوت والمداد قديم أزلي؟.

من قال هذا؟ وفي أي كتاب وجد هذا عنهم؟ قل لي، وكما نقل عنهم أن الله لا يُرى في الآخرة باللزوم الذي ادعاه والمقدمة التي نقلها. وأخذت أذكر ما يستحقه هذا الشيخ من أنه كبير الجماعة وشيخهم وأن فيه من العقل والدين ما

يستحق أن يعامل بموجبه، وأمرت بقراءة العقيدة جميعها عليه، فإنه لم يكن حاضراً في المجلس الأول، وإنما أحضروه في الثاني انتصاراً، وحدثني الثقة عنه بعد خروجه من المجلس أنه اجتمع به، وقال له: أخبرني عن هذا المجلس، فقال: ما لفلان ذنب ولا لي، فإن الأمير سأل عن شيء فأجابه عنه، فظننته سأل عن شيء آخر. وقال: قلت: أنتم ما لكم على الرجل اعتراض فإنه نصر ترك التأويل، وأنتم تنصرون قول التأويل، وهما قولان للأشعري، وقال: أنا أختار قول ترك التأويل وأخرج وصيته التي أوصى بها: وفيها قولي ترك التأويل (قال الحاكي له) فقلت له: بلغني عنك أنك قلت في آخر المجلس لما أشهد الجماعة على أنفسهم بالموافقة: لا تكتبوا عني نفياً ولا إثباتاً فلم ذاك؟ قال: لوجهين (أحدهما) أني لم أحضر قراءة جميع العقيدة في المجلس الأول، والثاني لأن أصحابي طلبوني لينتصروا بي، فما كان يليق أن أظهر مخالفتهم، فسكت عن الطائفتين أهـ باختصار قليل.[1]

اعتقال شيخ الإسلام في مصر والشام وسببه

نقل صاحب «الكواكب الدرية» عن الشيخ علم الدين أنه في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨ وقع بدمشق محنة للشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية، وكان الشروع فيها من أول الشهر، وكان سببها ترجيحه مذهب السلف في الصفات على مذهب المتكلمين، وكان قبل ذلك بقليل أنكر أمر المنجمين، ثم عقدت له عدة مجالس للمناظرة في مصر والشام، وحبس في القطرين، وقد ذكرنا في الفصل السابق إحدى تلك المناظرات، ونقل صاحب «جلاء العينين» عن الحافظ ابن كثير قال: وأكثر ما نالوا منه (أي أعداؤه) الحبس مع أنه لا ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام، ولم يتوجه لهم عليه ما يشين، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه، كما سيأتي أهـ.

قيل: ومن جملة أسباب حبسه خوفهم أنه ربما يدعي ويطلب الإمارة فلقي أعداؤه عليه طريقاً من ذلك، فحسنوا للأمراء حبسه لسد تلك المسالك أ هـ.

---

(١) أنظر لاستيفاء هذا البحث «العقيدة الواسطية ومجال المناظرة فيها» وهي من مطبوعاتنا بتحقيق — زهير —

حاله في معتقله، ووفاته في قلعة دمشق

ذكر صاحب «الكواكب الدرية»: أن الشيخ لما سجن في مصر بمحبس القضاة بحارة الديلم صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيراً من كثير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس، وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده، وكثر المترددون إليه حتى صار السجن يمتلىء منهم.

ولما ورد أمر بسجنه بقلعة دمشق، أظهر السرور بذلك، وقال: إني كنت منتظراً ذلك وهذا فيه خير عظيم، ونقل عنه وارث علومه العلامة ابن قيم الجوزية الذي حبس بقلعة دمشق معه في كتابه «الكلم الطيب والعمل الصالح» أنه قال: ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوه، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في مجلسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا إليَّ فيه من الخير ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله. وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه. ولما أدخل ووصل إلى القلعة وصار داخل سورها، نظر إليه وقال: ﴿فضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾(١) وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرُّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، فينقلب انشراحاً وقوة و يقينا وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها، وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف أهـ وكان دخوله قلعة دمشق سادس شعبان ٧٢٦ وما زال مقيماً في قاعتها إلى أن كانت وفاته ليلة الإثنين لعشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ.

---

(١) سورة الحديد: آية ١٣.

الاحتفال بالصلاة على شيخ الإسلام ودفنه

دخلت جنازة الإمام جامع بني أمية، وصلي عليه عقب صلاة الظهر ولم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه إلا حضر لذلك حتى غلقت الأسواق بدمشق، وعطلت معايشها حينئذ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم، وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء، والأتراك والأجناد، والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام، قال بعض من حضر: ولم يتخلف فيما أعلم إلا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس.

واتفق جماعة ممن حضر وشاهد الناس والمصلين عليه أنهم يزيدون على نحو من خمسمائة ألف، وحضرها نساء كثير بحيث حزرن بخمسة عشر ألفاً. قال أهل التاريخ: لم يسمع بجنازة تمثل هذا الجمع إلا جنازة الإمام أحمد بن حنبل، قال الدارقطني: سمعت أبا سهل بن زياد القطان يقول: سمعت عبدالله بن أحمد بن حنبل يقول: سمعت أبي يقول: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم الجنائز. قال أبو عبد الرحمن السلمي: إنه حزر الحزارون المصلين على جنازة أحمد، فبلغ العدد بحزرهم ألف ألف وسبعمائة ألف سوى الذين كانوا في السفن. ثم حملت جنازة الشيخ إلى قبره في مقبرة الصوفية فوضع. وقد جاء الملك شمس الدين الوزير ولم يكن حاضراً قبل ذلك، فصلى عليه أيضاً ومن معه من الأمراء والكبراء ومن شاء الله من الناس، ثم دفن وقت العصر إلى جانب أخيه الشيخ جمال الإسلام شرف الدين. انتهى من «الكواكب» باختصار.

خلاصة أعماله رحمه الله

ننقل عن «فوات الوفيات»، [1] خلاصة أعماله التي طار بها ذكره في البلاد، وهو قد نقلها من كتاب «تذكرة الحفاظ» للحافظ ابن عبد الهادي، وقد آثرت نقلها لتكون فهرساً لأعمال شيخ الإسلام من سنة ٦٩٨ إلى سنة ٧٢٨ وهي سنة وفاته.

قال ابن عبد الهادي قلت: أملى شيخنا المسألة المعروفة بالحموية سنة ٩٨ في قعدة بين الظهر والعصر وهو جواب سؤال ورد من حماة في الصفات، وجرى له

---

(١) (ج ١ ص ٤٠) طبع مصر سنة ١٢٩٩ هـ.

بسبب ذلك محنة، ونصره الله وأذل أعداءه، وما حصل له بعد ذلك إلى حين وفاته من الأمور والمحن والتنقلات يحتاج إلى عدة مجلدات، وذلك كقيامه في نوبة غازان سنة ٦٩٩ وقيامه بأعباء الأمر بنفسه، واجتماعه هو بنائبه قطلوشاه وبولآي، وإقدامه وجرأته على المغول، وعظيم جهاده، وفعله الخير، من إنفاق الأموال، وإطعام الطعام، ودفن الموتى، ثم توجهه بعد ذلك بعام إلى الديار المصرية، وسوقه على البريد إليها في جمعة لما قدم التتار إلى أطراف البلاد، واشتد الأمر بالبلاد الشامية، واجتماعه بأركان الدولة واستصراخه بهم، وحضهم على الجهاد، وإخباره لهم بما أعد الله للمجاهدين من الثواب، وإبدائهم له العذر في رجوعهم، وتعظيمهم له، وتردد الأعيان إلى زيارته، واجتماع ابن دقيق العيد به، وسماعه كلامه، وثنائه عليه الثناء العظيم، ثم توجهه بعد أيام إلى دمشق واشتغاله بالاهتمام لجهاد التتار، وتحريض الأمراء على ذلك إلى ورود الخبر بانصرافهم، وقيامه في وقعة شقحب المشهورة سنة ٧٠٢ واجتماعه بالخليفة والسلطان وأرباب الحل والعقد وأعيان الأمراء، وتحريضه لهم على الجهاد وموعظته لهم، وما ظهر في هذه الوقعة من كراماته وإجابة دعائه وعظيم جهاده، وقوة إيمانه وشدة نصحه للإسلام، وفرط شجاعته، ثم توجهه بعد ذلك في آخر سنة أربع لقتال الكسروانيين وجهادهم واستئصال شأفتهم، ثم مناظرته للمخالفين سنة (٥) في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم وظهوره عليهم بالحجة والبيان، ورجوعهم إلى قوله طائعين ومكرهين، ثم توجهه بعد ذلك في السنة المذكورة إلى الديار المصرية في صحبة قاضي الشافعية، وعقد له مجلس حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة، ثم حبسه بالجب بقلعة الجبل ومعه أخواه سنة ونصفاً، ثم خروجه بعد ذلك وعقد مجلس له لخصومتهم، وظهوره عليهم، ثم إقرائه للعلم وبثه ونشره، ثم عقد مجلس له في شهر شوال سنة (٧) لكلامه في الاتحادية وطعنه (عليهم)، ثم الأمر بتسفيره إلى الشام على البريد، ثم الأمر بردّه من مرحلة وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفاً، وتعليمه أهل الحبس ما يحتاجون إليه من أمور الدين، ثم إخراجه منه، وتوجهه إلى الاسكندرية وجعله في برج حبس فيه ثمانية أشهر يدخل إليه من شاء، ثم توجهه إلى مصر واجتماعه بالسلطان في مجلس حفل فيه القضاة وأعيان الأمراء وإكرامه له إكراماً عظيماً، ومشاورته له في قتل بعض أعدائه وامتناع

الشيخ من ذلك، وجعله كل من آذاه في حل، ثم سكناه بالقاهرة وعوده إلى نشر العلوم ونفع الخلق، وما جرى بعد ذلك من قضية البكري وغيرها، ثم توجهه بعد ذلك إلى الشام صحبة الجيش المنصور قاصداً العراق بعد غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع، وتوجهه في طريقه إلى بيت المقدس، ثم ملازمته بعد ذلك بدمشق لنشر العلوم وتصنيف الكتب وإفتاء الخلق، إلى أن تكلم في مسألة الحلف بالطلاق فأشار عليه بعض القضاة بترك الافتاء بها في سنة ثماني عشرة، فقبل إشارته، ثم ورد كتاب السلطان بعد أيام بالمنع من الفتوى فيها ثم عاد الشيخ إلى الافتاء بها وقال: لا يسعني كتمان العلم، وبقي كذلك مدة إلى أن حبسوه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، ثم أخرج، ورجع إلى عادته من الاشتغال والتعليم، ولم يزل كذلك إلى أن ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين كان قد أجاب به من نحو عشرين سنة، فشنعوا عليه بسبب ذلك، وكبرت القضية، وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بجعله في القلعة، فأخليت له قاعة حسنة، وأجري إليها الماء، وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه، وأقبل في هذه المدة على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب والرد على المخالفين، وكتب على تفسير القرآن العظيم جملة كبيرة تشتمل على نفائس جليلة، ونكت دقيقة، ومعان لطيفة، وأوضح مواضع كثيرة التبست على خلق من المفسرين، وكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة، وظهر بعض ما كتبه واشتهر، وآل الأمر إلى أن منع من الكتابة والمطالعة، وأخروا ما عنده من الكتب، ولم يتركوا دواة ولا قلماً ولا ورقة، وكتب عقيب ذلك بفحم يقول: إن إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم، وبقي أشهراً على ذلك، وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين.

بعض تلامذة شيخ الإسلام الأعلام (١)

ذكر صاحب «جلاء العينين» تراجم طائفة من تلاميذ شيخ الإسلام الأعلام، الذين كانوا من بعده من أشهر رجال الإسلام، بما خلفوا من الآثار التي طار

---

(١) إن كتاب «الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر» للعلامة ابن ناصر الدين الدمشقي، يعتبر أوفى كتاب في تراجم الذين أثنوا على ابن تيمية ونعتوه بـ (شيخ الإسلام) وهو من طبع المكتب الإسلامي بتحقيق ــ زهير ــ.

ذكرها في الأمصار، وانتفع بها أبناء الأعصار (فنهم)[1] أشهر تلاميذه، ووارث علومه، العالم الرباني شيخ الإسلام الثاني، شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية، صاحب الآثار الكثيرة المحررة، الذي حبس مع الشيخ في قلعة دمشق ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ. وقد قال القاضي برهان الدين الزرعي: ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه.

(ومنهم) الإمام الحافظ مؤرخ الإسلام شمس الدين أبو عبدالله محمد بن الذهبي صاحب «ميزان الاعتدال» في نقد الرجال وغيره. وقال عنه العلامة الشيخ تاج الدين السبكي في «طبقاته الكبرى»: كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها، ثم أخذ يخبر عنها أخبار من حضرها.

(ومنهم) الحافظ الكبير، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصري[2] ثم الدمشقي، قال عنه ابن حبيب: انتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير، ومن تصانيفه التاريخ المسمى «البداية والنهاية». و «طبقات الشافعية» وغيرهما.

(ومنهم) الحافظ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي، عده الذهبي في «طبقات الحفاظ»، وقد عدّ له ابن رجب في «طبقاته» ما يزيد على سبعين مصنفاً وتوفي وعمره أربعون سنة أو أقل.

(ومنهم) قاضي القضاة شرف الدين أبو العباس أحمد بن الحسين المشهور بقاضي الجبل، قرأ على الشيخ تقي الدين ابن تيمية عدة تصنيفات في علوم شتى، وأذن له في الإفتاء في شبيبته قال الذهبي فيه: هو مفتي الفرق، سيف المناظرين، وبالغ ابن رافع وابن حبيب في مدحه، وله اختيارات في المذهب، ومن شعره اللطيف قوله:

الصالحية جنة ... والصالحون بها أقاموا
فعلى الديار وأهلها ... مني التحية والسلام

(ومنهم) زين الدين عمر الشهير بابن الوردي، له تصانيف ي النحو والأدب والتصوف والتاريخ، وقد أطنب في ترجمة شيخ الإسلام في «تاريخه» ومن نظمه:

---

(١) يقصد ابن ناصر الدين بـ (منهم) الذين نعتوا ابن تيمية بـ (شيخ الإسلام).
(٢) نسبة إلى بصرى الشام.

سبحان من سخر لي حاسدي — يحدث لي في غيبتي ذكرا
لا أكره الغيبة من حاسد — يفيدني الشهرة والأجرا

(ومنهم) زين الدين أبو حفص عمر الحراني، ولي نيابة الحكم وقال: لم أقض قضية إلا وأعددت لها الجواب بين يدي الله تعالى.

(ومنهم) شمس الدين أبو عبدالله محمد بن مفلح، قال أبو البقاء السبكي: ما رأت عيناي أفقه منه، وقال ابن القيم: ما تحت قبة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح، وقال ابن كثير: وله مصنفات كثيرة منها على «المقنع» [1] نحو ثلاثين مجلداً وعلى «المنتقى» وكتاب «الفروع» أربع مجلدات، وله كتاب في أصول الفقه، و «الآداب الشرعية» الكبرى والوسطى والصغرى.

أبيات من مراثيه

لقد نظم في رثاء الإمام المترجم وذكر أعماله ومآثره قصائد غرّ، وذكر طائفة منها صاحب «الكواكب» وقد اخترنا أبياتاً منها نذكرها انموذجاً لما قال فيه بعض واصفيه. قال ابن فضل الله العمري من قصيدة طويلة:

مثل ابن تيمية ترضى حواسده — بحبسه ولكم في حبسه عُذر؟
مثل ابن تيمية في السجن معتقل — والسجن كالغمد وهو الصارم الذكر
مثل ابن تيمية تذوي خمائله — وليس يُلقط من أفنانه الزهر
مثل ابن تيمية شمس تغيب سدى — وما ترق بها الآصال والبكر
مثل ابن تيمية يمضي وما عبقت — بمسكه العاطر الأردان والطرر

ومنها في حساده ومناوئيه:

هل فيهم صادع للحق مقوله — أو خائض للوغى والحرب تستعر
رمى إلى نحو غازان مواجهة — سهامه من دعاء عونه القدر
بتل راهط والأعداء قد غلبوا — على الشآم وطال الشرّ والشرر
وشقّ في المرج والأسياف مصلتة — طوائفاً كلها أو بعضها تتر
هذا وأعداؤه في الدار أشجعهم — مثل النساء بظل الباب مستتر

---

(١) هو الكتاب العظيم «المبدع في شرح المقنع» وقد شرفني الله بطبعه، مع ملحق بلغته (المطلع) بـ ١١ مجلداً ــ زهير ــ

ومن قصيد لابن الوردي:

تقي الدين ذو ورع وعلم ... خروق المعضلات به تخاط
توفي وهو مسجون فريد ... وليس له إلى الدنيا انبساط
ولو حضروه حين قضى لألفوا ... ملائكة النعيم به أحاطوا
قضى نحباً وليس له قرين ... ولا لنظيره لف القماط

ثم قال:

فيا لله ما قد ضم لحد ... ويا لله ما غطى البلاط
هم حسدوه لما لم ينالوا ... مناقبه فقد مكروا وشاطوا
وكانوا عن طريقته كسالى ... ولكن في أذاه لهم نشاط
وحبس الدرّ في الأصداف فخر ... وعند الشيخ بالسجن اغتباط
بآل الهاشمي له اقتداء ... فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا

إلى أن قال:

ألم يكُ فيكم رجل رشيد ... يرى سجن الإمام فيستشاط
إمام لا ولاية كان يرجو ... ولا وقف عليه ولا رباط
ولا جاركم في كسب مال ... ولم يعهد له بكم اختلاط
ففيم سجنتموه وغظتموه ... أما الجزا أذيته اشتراط
وسجن الشيخ لا يرضاه مثلي ... ففيه لقدر مثلكم انحطاط
أما والله لولا كتم سري ... وخوف الشر لا نحلّ الرباط
وكنت أقول ما عندي ولكن ... لأهل العلم ما حسن اشتطاط
فما أحد إلى الإنصاف يدعو ... وكل في هواه له انخراط
سيظهر قصدكم يا حابسيه ... ونيتكم إذا نصب الصراط
فها هو مات عنكم واسترحتم ... فعاطوا ما أردتم أن تعاطوا
وحلوا واعقدوا من غير ردٍّ ... عليكم وانطوى ذاك البساط

ومن قصيدة للشيخ محمد العراقي الجزري:

يا طليق اللسان في كل فنٍ ... فلقد شرفت بك العلياء

إن تكن مت فالعلوم التي أحـ يت من بعد موتها أحياء

ومنها:

أنت «صخر» الوجود في كل أرض والبرايا جميعها «الخنساء»

ومنها:

قسماً بالاله لو أنصف الدهر لأضحى في كل بيت عزاء

ومن قصيدة زين الدين عمر بن الحسام الشبيلي رحمه الله:

سل عنه «غازانا» وسل أمراءه لما أتوا بطلائع الاسراء

«والمغل» قد ملكوا البلاد وأهلها كم قدّ من عات بغير عناء

وللفاضل برهان الدين ولد شهاب الدين التبريزي الحنفي:

فمن جاهد الأعداء في الدين مثله ومن سلّ سيف العزم في وجه «غازان»

ومنها:

وما ضره إن طال في السجن مكثه إذا كان في نسك وطاعة رحمن

هذا قليل من كثير من مواهب هذا الإمام الكبير وأعماله، ومن وصف الأئمة له، وشذرات من مراثيه.



علاوة على المحاضرة

دفع فرية عن ابن تيمية

بحث تاريخي علمي

لقد صدق كثير من العلماء والأدباء في مختلف العصور هذه الرواية الآتية في رحلة ابن بطوطة الشهير، وجعلوها قضية مسلمة يروونها ويتوارثونها إلى عصرنا هذا، حتى أن دائرة المعارف الإسلامية التي تنقل الآن إلى العربية في مصر، قد ترجمت لابن تيمية ترجمة بقلم الاستاذ محمد بن شنب (ص ١٠٩-١١٦ ج ١) فيها أغلاط كثيرة، ونقلت عبارة ابن بطوطة هذه، وهي قوله عن إمام الشام وشيخ الإسلام ابن تيمية «وكنت إذ ذاك بدمشق، فحضرته يوم الجمعة، وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم، فكان من جملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر» فرأيت أن أنشر كلمة في هذا الموضوع تكون الحد الفاصل بين الحق والباطل.

١ — إن ابن بطوطة رحمه الله لم يسمع من ابن تيمية ولم يجتمع به، إذ كان وصوله إلى دمشق يوم الخميس التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام ستة وعشرين وسبعمائة هجرية، وكان سجن شيخ الإسلام في قلعة دمشق أوائل شهر شعبان من ذلك العام، ولبث فيه إلى أن توفاه الله تعالى ليلة الأثنين لعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وعشرين وسبعمائة هجرية، فكيف رآه ابن بطوطة يعظ على منبر الجامع وسمعه يقول: ينزل... الخ.

٢ — إن رحلة ابن بطوطة مملوءة بالروايات والحكايات الغريبة، ومنها ما لا يصح عقلاً ولا نقلاً وهو يلقي ما ينقله على عواهنه، ولا يتعقبه بشيء فمن ذلك قوله: (١:٥٤) وفي وسط المسجد (أي الأموي بدمشق) قبر زكريا عليه السلام،

والمعروف أنه قبر يحيى عليه السلام، وقوله أيضاً: وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة، وهذا لا يقال من قِبَل الرأي، وسفيان أجل من أن يفضله على مسجد رسول الله ﷺ وعلى المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين وهما لم يبلغ الثواب فيهما هذه الدرجة، كما هو معلوم للمحدثين وغيرهم، ومن نقوله التي أقرها ولم ينكرها (١: ١٩٩، ١٣٣، ١٣٦) النذور للقبور المعظمة، والوقوف على أبواب الملوك، ومن ذلك النذر لأبي إسحاق، إذا هاجت الرياح في البحار، واشتدت الأخطار، وهو ما لم يبلغه أهل الجاهلية الذين قال الله تعالى عنهم ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ (١).

٣ ــ لم يكن ابن تيمية يعظ الناس على منبر الجامع كما يزعم ابن بطوطة (١:٥٧) (فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ على منبر الجامع) بل لم يكن يخطب أو يعظ على منبر الجمعة كما يوهمه قوله: «ونزل درجة من درج المنبر». وإنما كان يجلس على كرسي يعظ الناس، و يكون المجلس غاصاً بأهله، قال الحافظ الذهبي: «وقد اشتهر أمره، وبعد صيته في العالم، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم، وكان يورد الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح، وقال: وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجمع».

وقال علم الدين البرازلي في معجم شيوخه: «وكان يجلس في صبيحة كل جمعة يفسر القرآن العظيم، فانتفع بمجلسه وبركة دعائه، وطهارة أنفاسه؛ وصدق نيته، وصفاء ظاهره وباطنه، وموافقة قوله لعمله، وأناب إلى الله تعالى خلق كثير؛ وإنما كان يخطب الناس على منبر الجامع الأموي في عهد دخول الرحالة ابن بطوطة دمشق، قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، وقد كان خطيب المسجد، وإمام الشافعية فيه، وكان سكناه بدار الخطابة (ج ١ ص ٥٦ رحلة ابن بطوطة).

ومما تقدم يعلم أن ابن تيمية كان مدرساً وواعظاً، لا خطيباً، وكان يلقي درسه في التفسير صبيحة كل جمعة، وهو جالس على كرسي في الجامع الأموي لا

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٥.

واقف على منبر فينزل درجة عنه، وقد أشار إلى ذلك الحافظ المؤرخ ابن عبد الهادي بقوله: ثم أن الشيخ جلس يوم الجمعة (أي بدمشق) على عادته، وقال وهو يصف حاله وأعماله بمصر ويتكلم في الجوامع على المنابر من بعد صلاة الجمعة إلى العصر، فهو لم يقل على منابر الجمعة، ولا على منابر الخطابة، والظاهر أن المراد بالمنبر كل ما ارتفع عن الأرض كما يؤخذ من مفهومه اللغوي، فهو يعم هذه الكراسي التي يجلس عليها المدرسون في المساجد الكبرى بمصر والشام والعراق ليُسمعوا منها الجماهير، فكيف غفل ابن بطوطة عن ذلك؟.

٤ ــ إنك لا تجد في جميع ما تراه من كتبه المخطوطة والمطبوعة غير تفسير مسهب لمثل قوله الذي نقله عنه الشيخ ابن ناصر الدين الشافعي في الرد الوافر: «ومذهب السلف، والأئمة الأربعة وغيرهم: إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، وليس لأحد أن يضع عقيدة ولا عبارة من عند نفسه، بل عليه أن يتبع ولا يبتدع، ويقتدي ولا يبتدىء» ولمثل ما فسر به كلامه السيد صفي الدين الحنفي البخاري في القول الجلي بقوله: «قلت: وتفسير كلامه أنه يجب الإيمان بجميع المتشابهات الواردة في الكتاب والسنة كاليد والوجه والاستواء والنزول على وجه يليق به تعالى، فلا يكيف بشيء منها، ولا يمثل بصفات المخلوقين كما هو مذهب السلف ومن تبعهم من الخلف، فلا يقال: يد كيدنا، ولا وجه كوجهنا، أو استواء كاستوائنا، أو نزول كنزولنا بل يداه صفته بلا كيف، وكذا وجهه، وهكذا فقس سائر الصفات والأفعال» وأقول: هذه عقيدته الحموية والواسطية والاصفهانية التي عقدت له المناظرات حولها في مصر والشام، بل هذه أيضاً كتبه ورسائله وفتاويه وردوده في العقائد قد بسط الكلام فيها على آيات الصفات والأفعال وأحاديثها كالوجه واليدين والاستواء والنزول وغيرها بالمعقول والمنقول، وكلها يتضمن اثبات الاسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات اثباتاً بلا تشبيه، وتنزيلاً بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ وقوله ﴿ليس كمثله شيء﴾ رد للتشبيه والتمثيل، وقوله: ﴿وهو السميع البصير﴾ دفع للالحاد والتعطيل.

٥ ــ إن طريقة شيخ الإسلام في اثبات الأسماء والصفات، وفي بيان منشأ غلط المعطلة والنفاة، واضحة في جميع كتبه، وخلاصتها أن لهذه الصفات وجوداً علمياً ذهنياً، ووجوداً خارجياً عينياً، فوجودها الذهني، هو العلمي المطلق المجرد

عن جميع الخصائص والاضافات كالحياة والعلم والقدرة، والسمع والبصر والكلام، وكون الموصوف حياً عليماً قديراً، سميعاً، بصيراً متكلماً، وهذا القدر مشترك بين الموجودات كافة، يطلق عليها الاشتراك الاسمي أو اللفظي، كما هو ثابت لها في الوجود العلمي والذهني، ولكن شيئاً من ذلك لا يقتضي المشاركة في الأعيان الخارجية، بل الذهن يأخذ معنى مشتركاً بين المسميين، وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق من المخلوق، والمخلوق من الخالق، ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والا تفاق، وما دل عليه بالاضافة والاختصاص المانعين من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى.

٦ ــ يبين شيخ الإسلام (رحمه الله تعالى) في الرسالة التدمرية وغيرها أن نفاة الصفات يقعون في كثير من الأوهام والمحاذير (منها) ظنهم أن مدلول النصوص هو التمثيل (ومنها) أنهم بنوا على ظنهم السيء تعطيل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من معاني الآلهية اللائقة بجلال الله تعالى (ومنها) أنهم نفوا عن الله تعالى تلك الصفات بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (ومنها) أنهم وصفوا الرب تعالى بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات، أو صفات المنقوصات والمعدومات فهم يجمعون في كلام الله في الله بين التعطيل والتمثيل، وهذا من الإلحاد في أسماء الله وآياته.

٧ ــ يظهر من كلام الحافظ ابن حجر، أن الشيخ نصراً المنبجي الذي كان مقدماً في الدولة هو الذي أشاع مسألة النزول عن الدرج، دسبب كتاب ورده من الإمام ابن تيمية ينكر عليه فيه أقوالاً في وحدة الوجود، و يعدها عليه، قال الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة» (١٥٤:١): «وكتب إليه كتاباً طو يلاً، ونسبه وأصحابه إلى الاتحاد الذي هو حقيقة الالحاد، فعظم ذلك عليهم، وأعانه عليه قوم آخرون، ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة، وقعت منه في مواعيده (مواعظه) وفتاو يه، فذكروا أنه ذكر حديث النزول، فنزل عن المنبر درجتين (كذا) فقال: كنزولي هذا، فنسب إلى التجسيم.

وأقول: قد عرفت المراد من لفظ المنبر، حتى إن الحافظ ابن حجر قال:

«وكان يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث فيورد في ساعة من الكتاب والسنة، واللغة والنظر، ما لا يقدر احد على أن يورده في عدة مجالس، كأن هذه العلوم بين عينيه، (ص ١٥٣ ج ١) من «الدرر». وهذا مما يؤكد أنه كان يلقي درسه على كرسي يجلس عليه، والمستمعون حوله، فكلامه على طريقة المفسرين من بعد صلاة الجمعة إلى العصر، وإيراده من الآيات والأحاديث ونصوص اللغة، وأقوال العلماء، في مجلس واحد ما لا يورده غيره في مجالس كثيرة كما تقدم، هو طريقة المدرسين المحققين في حلقات المجالس الكبرى لاخطباء المنابر وهم وقوف، لاسيا وقد صرحوا بجلوسه في دروسه، ولا يتيسر على منابر الخطب الجمعية.

ثم انظر إلى قوله في خصومه: ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة، فإذا كانت مغيرة فما ذنبه هو حتى يؤخذ بها أو تؤخذ عليه؟ ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [١] والحافظ ابن حجر هو ناقل غير قائل، وفي قوله: «عقائد مغيرة» ما يثبت أنه لا يعتدّ بما قالوه، بل لا يعبأ بما افتري به عليه، كيف وقد نقل أقوال الأئمة الثقات فيه، وهم قد نزهوه عن تلك المفتريات، ومن أراد استيفاء البحث، فليراجع مجموعة «الرد الوافر» أو الرسالة «التدمرية» [٢] لشيخ الإسلام، أو ملحق الجزء الرابع من «فتاويه»، أو «العقود الدرية» للحافظ ابن عبد الهادي، ليبلغ حد اليقين في نفي مطاعن الطاعنين.

٨ ـــ إن العلوم الحديثة قربت فهم النصوص على طريقة السلف، وبينت أنها الأعلم والأحكم، بَلْهَ كونها الأهدى والأسلم، فمن ذلك حديث النزول الذي أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا.... الخ» فقد أورد في كتاب «دفع شُبه التشبيه» قول القاضي أبو يعلى: «النزول صفة ذاتية، ولا نقول: نزوله انتقال» وقال ابن الجوزي: «وهذا مغالط» قلت: ليس بمغالط فقد ظهر في عصرنا ما يؤيد قوله، فإن صوت المذياع الآن يسمع في كل مكان كما يسمع في مكانه، وهذا الاختراع الحديث يقرب لنا فهم ما أورده

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٢) «الرد الوافر» و«التدمرية» من مطبوعات المكتب الإسلامي.

البخاري في «صحيحه»، من أن الله ينادي عباده بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، ومثله إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صوته... الخ، بل الآلة التي تريك المتكلم الآن حاضراً عندك وهو لم يبرح مكانه (تلفزيون) تهدينا إلى فهم النزول إلى سماء الدنيا بلا انتقال، وإن هذا النزول هو صفة ذات لا صفة فعل، كما قال القاضي أبو يعلى، ومثله إسناد صفة الكلام إليه تعالى وفي قوله: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾[1] وقول رسوله: «إذا تكلم الله بالوحي» فوصفه بما وصف به نفسه حقيقي غير مجازي وهو لا يحتاج إلى تأويل بله التعطيل، فراراً من شبهة التشبيه، فإن تشبيه من ليس كمثله شيء بالمخلوق المتكلم بفم ولسان، غير وارد من أصله، فقد أنطق العلم الحديث الآن الجمادات، فنطقت بغير فم ولسان، كالمذياع والحاكم، أفتأبى قدرة الله وحكمته إلا أن يتكلم بفم ولسان كالإنسان؟ أليس هو القادر على أن يختم على فم الإنسان و ينطق جسمه الصامت كما أخبر بعدة آيات؟ منها قوله سبحانه: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم﴾[2] الآية. أفيعقل أن يكون هذا القادر الحكيم عاجزاً عن التكلم إلا بفم المخلوق؟ وجملة القول: إن هذه الرواية مختلقة على ابن تيمية، سواء صحت عن ابن بطوطة أم لم تصح، فهو لم يره ولم يسمع منه، ومؤلفاته جميعها ترد عنه هذه الكلمة الشاذة، بل لو ثبتت الرؤية والسماع، لصح أن نقول: إن ابن بطوطة شبه له ابن تيمية، كما شبه عذق النخلة في القصة التي حكاها ابن بطوطة في سبب تسمية الشيخ رسلان بالباز الأشهب (ج ١:٥٩) وقد كنت دخلت على شاب من معارفي، فقلت له: ما أشبهك بفلان، قال: فلان ما أعرفه، ولكني أعرف شاباً آخر لولا تحقق من وجودي المستقل عنه لظننته إياه، وحكايات الشبه والاشتباه في الأشخاص والأشياء لا تكاد تحصر، وهي داخلة في باب تحقيق الشخصية من كتب الطب الشرعي وغيره.

على أن ابن بطوطة لم يكتب رحلته بقلمه، وإنما أملأها على ابن جزي الكلبي، وقال هذا في المقدمة: «ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبدالله بألفاظ موفية

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٤.
(٢) سورة يس، الآية: ٦٥.

للمقاصد التي قصدها، موضحة للمعاني التي اعتمدها». فيجوز أن يكون ذلك من تحريف النساخ، أو وسوسة بعض الخصوم، والله تعالى أعلم.[1]

---

(١) لشيخ الإسلام كتاب مستقل في «شرح حديث النزول» (طبع المكتب الإسلامي، وقد حقق فيه أن هذا النزول هو صفة ذات لا صفة فعل، ونقل فيه روايات عن أئمة السنة كحماد بن زيد، واسحاق بن راهويه، بأنه تعالى في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء.

قلت: الكتاب كله يؤيد هذا المعنى، ويبعد عن شيخ الإسلام وأهل السنة، ما عند غيرهم من تعطيل للصفات، أو تشبيه الله بخلقه، ويهدينا إلى فهم النزول إلى سماء الدنيا بلا انتقال ـــ زهير ـــ

علاوة ثانية

في اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية

اشتهر شيخ الإسلام ابن تيمية بمسائل أثرت عنه، وظن كثير من الناس أنه انفرد بها عن غيره، بل ظنوا أنه خالف في بعضها الإجماع، وهي أمور اجتهادية يقع في مثلها الخلاف بين العلماء، ومن المفروغ منه أن ابن تيمية قد بلغ رتبة الاجتهاد في الأحكام الشرعية، وأنه كان يفتي الناس بما أدى إليه اجتهاده، وإنه موافق في فتاواه بعض الصحابة أو التابعين، أو أحد أئمة المذاهب الأربعة أو غيرهم، ممن عاصرهم أو جاء قبلهم أو بعدهم، وقد قال العلامة برهان الدين ابن الإمام محمد المعروف بابن قيم الجوزية: لا نعرف مسألة خرق فيها الإجماع، ومن ادعى ذلك فهو إما جاهل وإما كاذب، ولكن مانسب إليه الانفراد به ينقسم إلى أربعة أقسام.

(الأول): ما يستغرب جداً فينسب إليه أنه خالف فيه الإجماع، لندور القائل به وخفائه على الناس، لحكاية بعضهم الإجماع على خلافه.

(الثاني): ما هو خارج عن مذاهب الأئمة الأربعة، وقال به بعض الصحابة أو التابعين أو السلف، والخلاف فيه محكي.

(الثالث): ما اشتهرت نسبته إليه مما هو خارج عن مذهب الإمام رضي الله عنه، لكن قد قال به غيره من الأئمة وأتباعهم.

(الرابع): ما أفتى به واختاره مما هو خلاف المشهور في مذهب أحمد، وإن كان محكياً عنه وعن بعض أصحابه.

وقد ذكر برهان الدين اختيارات شيخ الإسلام في هذه الأقسام الأربعة، فالقسم الأول عدّ منه في الطلاق عشر مسائل، وعدّ منه في غير الطلاق، تسعاً وعشرين مسألة، ومن مسائل القسم الثاني سبع عشرة مسألة، ومن الثالث ست

عشرة، ومن الرابع ستاً وعشرين، وتجد هذه المسائل في مجموع يشتمل على رسالتين (الأولى): في مذهب الإمام داود الظاهري، جمعها الأستاذ الشيخ محمد الشطي (والثانية): في مسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع العلامة برهان الدين المتقدم، وفي «الكواكب الدرية» (من مجموع الردّ الوافر المطبوع بمصر ١٣٢٩) شذرة من هذه الاختيارات ومعها ذكر من اختارها من أئمة السلف (من ص ١٨٤).

وأهم هذه الأقوال التي اشتدّ فيها النزاع، وادعى خصوم الشيخ أنه خرق بها الإجماع، ثلاث مسائل فيما نراه: الطلاق، والوسيلة، وشد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة المفضّلة: حرم مكة، والمدينة، والمسجد الأقصى، ولنا في هذه القضايا الثلاث كلمات ثلاث أختم بها هذه العلاوة.

قضية الطلاق

الطلاق في الإسلام لا يكون إلا عن ضرورة و بصيرة، وذلك بأن يكون الزوجان قانعين بأن لا سبيل لبقائهما على الحياة الزوجية، لموانع جسمية أو نفسية، خَلقية أو خُلقية، تجعل صفو العيش كدراً، وتعرّض النسل للمهانة والشقاء، فالفراق في هذه الحال نعمة لا نقمة، والزوجان سعيدان به لا شقيان، ﴿وإن يتفرقا يُغن الله كلاً من سَعته﴾[1] وآية ذلك أن يكون الزوج في حال الطلاق عاقلاً مختاراً، وأن تكون الزوجة راضية مطمئنة، فيمتعها متاعاً حسناً و يفارقها بإحسان، أما إذا لم يكن موجب للفراق، فليس له أن يضارها بالطلاق، وعليه أن يذكر قول العليم الحكيم: ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾[2] فهذا ضمان وأمان لها من الله تعالى طول حياتها عنده، ما دامت قائمة بواجبها، أما طلاق الغضبان والسكران، والطلاق من أجل قضية أجنبية لا علاقة للزوجة بها، فهو طلاق الظالمين لأنفسهم ولأزواجهم، وسيأتي حكمه.

وقد ذكر شيخنا القاسمي ــ رحمه الله ــ آداب التطليق المستنبطة من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة، في رسالته التي سماها «الاستئناس لتصحيح أنكحة

---

(١) النساء، الآية: ١٣٠.

(٢) النساء، الآية: ٣٤.

الناس» فعدّ منها عشرة آداب (الأول): هو رعاية المصلحة في إيقاعه، بعد التروي والتحاكم، (الثاني): إيقاعه في حال الخوف من عدم إقامة حدود الله. (الثالث): أن لا يكون القصد بإيقاع الطلاق مضارة الزوجة. (الرابع): أن يطلق لداع لا يتأتى معه اتخاذها زوجة. (الخامس): أن لا يطلق ثلاثاً دفعة واحدة. (السادس): أن يشهد على الطلاق. (السابع): أن لا يكون في حالة الغضب. (الثامن): أن ينوي الطلاق، «إنما الأعمال بالنيات». (التاسع): أن يكون التطليق مأذوناً فيه من جهة الشارع. (العاشر): التطليق بإحسان، لا بإساءة ولا بفحش من الكلام، ولا بغي ولا عدوان.

هذه الجمل القصيرة كالعناوين لهذه الآداب العشرة التي شرحها أُستاذنا في رسالته، ثم قال: فأمر تعالى المطلقين إذا طلقوا الطلاق المأذون فيه ــ وهو المستوفي شروطه ــ أن يسرحوا نساءهم راضيات عنهم، داعيات لهم، ذاكرات لجميلهم ومعروفهم وإحسانهم، وذلك بأن يحسنوا إليهن بما يتمتعن به على قدر اليسر والعسر، وأكد ذلك أيضاً بقوله: ﴿متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾(١) فجعل ذلك حقاً لازماً على الذين يحسنون إلى أنفسهم في المسارعة إلى طاعة الله فيما ألزمهم به، وأدائهم ما كلفهم من فرائضه، ويحسنون إلى المطلقات بالتمتيع على الوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة، وختم البحث بهذه الكلمة الواعظة: تالله إن القلب يتفطر ألماً، والعين تدمع دماً، على ما أصبحوا فيه من الجهل، ولا من سائق لهم إلى الفقه والعلم، حتى أصبحت محاكم القضاة تياراً لأمواج شكاية المظلومات، وميداناً لجولان دعاوي الزوجات، (و) حتى صار المسلمون ببَغْيهم في الطلاق وهضم حقوق الأزواج عاراً على الإسلام، وفتنة لسواهم على الأقوام، ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا، واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾.(٢)

الطلاق عند الأجانب

أما الطلاق في أوربا وأميركا، فالظاهر أنه لا يكون إلا لأسباب تقع بين الزوجين خاصة، ولكنهم يطلقون لأهون الأسباب وأيسرها، كقصّ الشعر

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٣٦.
(٢) سورة الممتحنة: آية ٥.

وحلق اللحية، ولباس السهرة ونحو ذلك، ولذلك كثر عندهم كثرة هائلة، وهو طلاق باعثه السآمة والملل، وحب التنقل، وله عواقب وخيمة، ومنها ضياع النسل، وقد نشرت جريدة الأهرام (أول سنة ١٣٥٤ هـ وسنة ١٩٣٥ م) اعتقاداً للقاضي لندسي أشهر قضاة الطلاق في لوس انجلوس في ولاية (كالِفورنية) خلاصته أن الحياة الزوجية ستزول من بلادهم (أميركا الشمالية) وتحل محلها الإباحة والفوضى في العلاقة ما بين النساء والرجال في زمن قريب، وهي الآن كشركة تجارية ينقضها الشريكان لأوهى الأسباب خلافاً لهداية جميع الأديان، إذ لا دين ولا حب يربطهما، بل الشهوات والتنقل في وسائل المسرات[1] أ.هـ.

ومن غريب الاتفاق أني قرأت في صحيفة دمشقية صدرت يوم (١٣٧١/٧/٢٢ و ١٩٥٢/٤/١٦) كلمة عن الطلاق عند الأميركيين وأسبابه، يتبين منها أن نزول الفتاة الأميركية ــ فتاة ومتزوجة ــ إلى ميدان العمل الخارجي هو الذي أثارها على طبيعتها وشريعتها، ودعاها إلى كراهية البيوت والأزواج والأولاد!!! فقد زادت نسبة النساء العاملات في السنوات الأخيرة بمقدار (٥٠) في المئة، في حين أن الرجال لم يزيدوا إلا بمقدار (٢٠) في المئة. ومما يدل على أن المرأة الأميركية تفوق جميع نساء العالم نفوذاً انتشار الطلاق في أميركا، والمشاهد أنه كلما قوي نفوذ المرأة كثر الطلاق، لأن قدرة المرأة على الاستقلال بنفسها استقلالاً مادياً وأدبياً يهون عليها أمر الفراق عن زوجها، ولهذا نجد أن نسبة الطلاق في أميركا ثمانية أمثالها في بريطانيا، كما نجد أن (٧٠) في المئة من حالات الطلاق تقع بناء على طلب الزوجات لا على طلب الأزواج، وقلما نجد الآن فتاة أميركية ترضى أن تكون ربة بيت فقط، بل كل فتاة تريد أن تعمل وأن تكسب كالشباب، وبعد الزواج ترفض المرأة أن تبقى في بيتها!!

قلت: سبب هذا الانحلال الخُلقي، والتدهور الاجتماعي هو تخلي الرجال عن النساء، بل دفعهن في تيار العمل واللهو خارج المنزل، فاختل نظام البيوت، وتقوضت دعائم الأسرة، وهذا هو الذي يقلدهم فيه من بلاد الشرق عبيد

(١) وقد زادت حالات التدهور الخلقي في المجتمعات الغربية والشرقية على السواء، وقد حفظ الله بلاد الإسلام فاستمرت الروابط العائلية متينة ــ والحمد لله ــ.

الشهوات، حتى تتعطل الحياة المنزلية، وتقفر البيوت من أهلها:

إذا لم تكن في منزل المرء حرة مدبرة ضاعت مصالح داره

الطلاق في الإسلام

وبعد فلشيخ الإسلام في الطلاق الشرعي والبدعي كلام يطول، ولشرحه في كتب ابن القيم حواشٍ وذيول، وحسبنا أن نشير إلى مراجعه، فهي مطبوعة متداولة، وفيها من حقائق التنزيل والتأويل، ما يضمن سلامة الأسَر، بل سعادة البشر، لو رعوا هذه النصوص حق رعايتها، ولم يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وكتب الشيخين قد أشبعت هذا الموضوع بحثاً واستدلالاً، ولم تدع للمبتدعة فيه شبهة ولا مقالاً، بل أوردت جميع مقالاتهم وأتت عليها نقضاً وإبطالاً. وإنك لتجد هذه المباحث السابغة، والحجج البالغة، في الجزأين الثالث والرابع من فتاوى شيخ الإسلام، والإغاثتين الكبرى والصغرى لتلميذه ابن القيم، وله أيضاً سبح طويل في كتابه «زاد المعاد» وفي تهذيبه لـ«سنن أبي داود» وإليك نبذاً قصيرة منها كلها:

قال شيخ الإسلام في «فتاويه»[(١)]: إن الأصل بقاء النكاح، ولا يقوم دليل شرعي على زواله بالطلاق المحرم، بل النصوص والأصول تقتضي خلاف ذلك ولو غلّظ الايمان التي شرع الله فيها الكفارة بما غلّظ، ولو قصد أن لا يحنث فيها بحالٍ، فذلك لا يغير شرع الله، وأيمان الحالفين، لا تغيّر شرع الدين.

وقال ص ٣١: «والمرأة إذا أبغضت الرجل كان لها أن تفتدي نفسها منه وهذا الخلع تبين به المرأة، فلا يحل له أن يتزوجها بعد إلا برضاها، وليس هو كالطلاق المجرد... إن الخلع هو الفرقة بعوض، فمتى فارقها بعوض فهي مفتدية لنفسها به، وهو خالع لها بأي لفظ كان... وذلك أن الاعتبار بمقاصد العقود وحقائقها لا باللفظ وحده، فما كان خلعاً فهو خلع بأي لفظ كان، وما كان طلاقاً فهو طلاق بأي لفظ كان، وما كان يميناً فهو يمين، وما كان إيلاء فهو إيلاء، وما كان ظهاراً فهو ظهار، والله تعالى ذكر في كتابه الطلاق واليمين والظهار والإيلاء

---

(١) ج ٢٧/٣ طبع مصر.

والافتداء وهو الخلع، وجعل لكل واحد حكماً، فيجب أن نعرف حدود ما أنزل الله على رسوله، وندخل في الطلاق ما كان طلاقاً، وفي اليمين ما كان يميناً أ هـ باختصار.

وفي ص ٣٣: «إن كتاب الله يبين أن الطلاق بعد الدخول لا يكون إلا رجعياً، وليس في كتاب الله طلاق بائن إلا قبل الدخول».

ولو قال: أنتِ عليّ كظهر أمي وقصد به الطلاق، فإن هذا لا يقع به الطلاق عند عامة العلماء، وفي ذلك أنزل الله القرآن فإنهم كانوا يعدّون الظهار طلاقاً، والإيلاء طلاقاً، فرفع الله ذلك كله، وجعل في الظهار الكفارة الكبرى(١) وجعل الإيلاء يميناً يتربص فيها الرجل أربعة أشهر، فإما أن يمسك بمعروف أو يسرح بإحسان، وكل يمين يحلف عليها المسلمون من أيمانهم ففيها كفارة يمين،(٢) كما دل عليه الكتاب والسنة.

وفي ص ٢٤٦ من «زاد المعاد»: وأجمع المسلمون على وقوع الطلاق الذي أذن الله فيه وأباحه، إذا كان من مكلف مختار، عالم بمدلول اللفظ، قاصد له، واختلفوا في وقوع المحرّم من ذلك... ونحن نذكر المسألتين تحريراً وتقريراً، كما ذكرناهما تصويراً.

وفيه: أن رسول الله ﷺ أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام غضبان ثم قال: أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم» وإسناده على شرط مسلم أ هـ.

قال البخاري في صحيحه: باب الطلاق في الإغلاق والسكران والمجنون وأمرهما، والغلط، والنسيان في الطلاق والشك لقول النبي ﷺ: «إنما الأعمال

---

(١) هو قوله تعالى: ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا.. فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا﴾. المجادلة الآيات ٣ و٤.

(٢) في قوله: ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم، أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾ المائدة ٨٩.

بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى» ــ إلى قوله: وقال عثمان: ليس لمجنون ولا سكران طلاق، وقال ابن عباس: طلاق السكران والمستكره ليس بجائز أ هـ.
وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: وذهب إلى عدم وقوع طلاق السكران أيضاً ــ كعثمان ــ أبو الشعثاء، وعطاء، وطاووس، وعكرمة، والقاسم، وعمر بن عبد العزيز، وذكرهم ابن أبي شيبة عنهم بأسانيد صحيحة، وبه قال ربيعة، والليث، وإسحاق، والمزني، واختاره الطحاوي.

وفي «أعلام الموقعين»: ٣٣٢/٣ ــ بعد أن ذكر من ذهب إلى القول بعدم نفوذ طلاق السكران من الحنفية والشافعية ــ قال: والصحيح أنه لا عبرة بأقواله من طلاق ولا عتاق ولا بيع ولا هبة ولا وقف ولا إسلام ولا ردة ولا إقرار، لبضعة عشر دليلاً، ثم فصل القول في ذلك كله تفصيلاً.

ومن «زاد المعاد»: ٢٤٤/٣ «وأما طلاق الاغلاق، فقد قال الإمام أحمد في رواية حنبل؛ وحديث عائشة رضي الله عنها: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق» يعني الغضب.

قال شيخنا ــ يعني ابن تيمية ــ: وحقيقة الإغلاق أن يغلق على الرجل قلبه، فلا يقصد الكلام أو لا يعلم به كأنه انغلق عليه قصده وإرادته» أ هـ.

قلت: قال أبو العباس المبرد: الغلق ضيق الصدر وقلة الصبر بحيث لا يجد له مخلصاً. (قال شيخنا): و يدخل في ذلك طلاق المكره والمجنون، ومن زال عقله بسكر أو غضب، وكل من لا قصد له ولا معرفة له بما قال. أ هـ.

وفي «أعلام الموقعين» ٣٣١/٣:

المخرج الأول: أن يكون المطلق أوالحالف زائل العقل إما بجنون أو إغماء، أو شرب دواء، أو وسوسة، وهذا المخرج مجمع عليه بين الأمة. أ هـ باختصار قليل.

ثم قال: المخرج الخامس: أن يفعل المحلوف عليه ذاهلاً، أو ناسياً أو مخطئاً، أو جاهلاً، أو مكرهاً، أو متأولاً، أو معتقداً أنه لا يحنث به تقليداً لمن أفتاه بذلك، أو

---

(١) الخليفة الراشد عثمان بن عفان صهر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

مغلوباً على عقله، أو ظناً منه أن امرأته طلقت، فيفعل المحلوف عليه بناء على أن المرأة أجنبية، فلا يؤثر فعل المحلوف عليه في طلاقها شيئاً. أ هـ.

وفي فتاوى شيخ الإسلام ١٥١/٤: «ولا يقع طلاق المكره، والإكراه يحصل إما بالتهديد أو بأن يغلب على ظنه أنه يضره في نفسه أو ماله». وفي ص ١٥٢: «ومن حلف بالطلاق كاذباً يعلم كذب نفسه لا تطلق زوجته ولا يلزمه كفارة يمين».

وقال أيضاً: ومن علق الطلاق على شرط أو التزمه لا يقصد بذلك إلا الحض أو المنع فإنه يجزئه فيه كفارة يمين إن حنث.

وفي ص ١١٢ ج ٤: لو حلف بالثلاث فقال: الطلاق يلزمني ثلاثاً لأفعلن كذا، فكان طائفة من السلف والخلف من أصحاب مالك وأحمد بن حنبل وداود وغيرهم يفتون بأنه لا يقع به الثلاث، لكن منهم من يوقع به واحدة، وهذا منقول عن طائفة من الصحابة والتابعين، وغيرهم في التنجيز فضلاً عن التعليق واليمين. وهذا قول من اتبعهم على ذلك من أصحاب مالك وأحمد وداود في التنجيز والتعليق والحلف.

وفي ص ١١٦: الثاني صيغة قسَم كقوله: الطلاق يلزمني لأفعلنّ كذا، أو لا أفعل كذا، فهذا يمين باتفاق أهل اللغة، واتفاق طوائف الفقهاء، واتفاق العامة واتفاق أهل الأرض أ هـ.

المطلقة

وبعد فهذه مقتطفات من قصيدة (المطلقة) للشاعر الشهير الرصافي[1] في الانتصار لمذهب ابن القيم وشيخه عليهما الرحمة والرضوان، وقد نشرت في آخر «إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان»[2] ومطلعها:

بدت كالشمس يحضنها الغروب ... فتاة راع نضرتها الشحوب

منزهة عن الفحشاء خود ... من الخفرات آنسة عَروب

---

(١) هو معروف بن عبد الغني الرصافي، الشاعر الأديب، المربي، السياسي، توفي في بغداد ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥ م.

(٢) وهو من منشورات المكتب الإسلامي بتحقيق الأستاذ محمد عفيفي.

ومنها:

حـليلة طيـب الأعـراق زالـت ... بـه عنهـا وعـنـه بها الـكـروب
رعـى ورعـت فـلـم ترقـط منـه ... ولم يـرقـط منهـا مـا يـريـب

ومنها:

فـغـاضـب زوجـهـا الخـلطاء يوماً ... بـأمـر للـخـلاف بـه نـشـوب
فـأقـسـم بـالـطـلاق لهـم يمينـاً ... وتـلـك ألِـيَّـة خـطـأ وحُـوب
وطلقـهـا على جهل ــ ثلاثاً ــ ... كـذلـك يجـهـل الرجـل الغضوب
وأفتى بـالـطـلاق طـلاق بـتٍ ... ذوو فـتـيـا تـعـصبهم عـصيـب
فـبـانـت منـه لم تـأت الـدنـايا ... ولم يـعـلـق بهـا الـذام المـعـيـب
فـظـلـت وهـي بـاكـيـة تـنـادي ... بصـوت مـنـه ترتجـف الـقـلـوب
لمـاذا يـا نجيـب صـرمـتَ حبلي؟ ... وهـل أذنـبـتُ عـنـدك يا نجيب؟

ومنها:

فـأطـرق رأسـه خـجـلاً وأغضى ... وقـال ودمـع عـيـنـيـه سكـوب
نجـيـبـة أقـصـري عني فـإني ... كـفـاني من لظـى الندم اللهيب
ومـا والله هـجـرك بـاخـتـيـاري ... ولـكـن هـكـذا جرت الخـطـوب

وقد ختمها بقوله:

ألا قـل في الـطـلاق لمـوقـعيـه ... بمـا في الـشرع لـيس لـه وجـوب
غـلـوتم في ديـانـتـكـم غـلـواً ... يضـيـق بـبـعـضـه الشرع الرحيب
أراد الله تـيـسـيـراً وأنتم ... مـن الـتـعـسير عـنـدكـم ضـروب
وقـد حـلـت بـأمـتـكـم كـروب ... لـكـم فيهـن ــ لا لهـم ــ الذنوب
وَهَـى حـبـل الـزواج ورق حتى ... يـكـاد إذا نـفـخـت لـه يـذوب
كـخيط من لعاب الشمس أدلت ... بـه في الجـو هـاجـرة حـلـوب
يمـزقـه مـن الأفـواه نـفـث ... ويـقـطـعـه مـن الـنـسـم الهـبـوب
فدى ابـن القيم الـفـقـهاء كم قد ... دعـاهـم للصـواب فـلـم يجيبوا
ففي «إعـلامـه» للـنـاس رشد ... ومـزدجـر لمـن هـو مسـتـريـب

نحـا في مـا أتـاه طـريـق عـلـم نحـاهـا شـيـخـه الحبر الأديـب
وبـيّـن حـكـم ديـن الله لـكـن مـن الـغـالين لم تـعـه الـقـلـوب
لـعـل الله يحـدث بـعـد أمـراً لـنـا فـيـخـيـب منهـم من يخـيـب

والمقصود ــ كما يقول ابن القيم ــ أن الناس لا بد لهم في باب الطلاق من أحد ثلاثة أبواب يدخلون منها.

(أحدها) باب العلم والاعتدال الذي بعث الله به رسوله ﷺ وشرعه للأمة رحمة بهم، وإحساناً إليهم.

(والثاني) باب الآصار والأغلال الذي فيه من العسر والشدة والمشقة ما فيه.

(والثالث) باب المكر والاحتيال الذي فيه من الخداع والتحيل والتلاعب بحدود الله تعالى، واتخاذ آياته هزواً ما فيه، ولكل باب من المطلقين وغيرهم جزء مقسوم.

رجوع المحاكم المصرية إلى الطلاق الشرعي

قال الاستاذ محمد رشيد رضا في مناره: وأطال ابن القيم في تخريج أحاديث الباب والكلام عليها، وأثبته بالكتاب والسنة واللغة والعرف وعمل أكثر الصحابة (ثم قال):

واقترح بعض الفقهاء والعقلاء على حكومتنا المصرية الرجوع فيها إلى أصل الكتاب والسنة الذي كان أول من بسط دلائله شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم في كتبه «إعلام الموقعين» و «إغاثة اللهفان» و «زاد المعاد»، ووافقها وأيدهما من أعلام السنة وفقهاء الحديث بعدهما الإمام الشوكاني، والسيد صديق حسن، وصاحبا شرح سنن أبي داود وحاشية سنن الدارقطني من متأخري علماء الهند الأعلام. (١)

ونقف عند هذا الحد من الكلام في يسر الإسلام وسماحته في أمر الطلاق

---

(١) هوشيخ الإسلام ابن تيمية.
(٢) ٦٨٣ ج ٩ م ٢٨.

وحماية الأسرة ورعايتها، وأن ابن تيمية لم يتخط هذه الدائرة من أقواله، بل جميع ما أتى به مؤيد بالكتاب والسنة وما كان عليه أعلام هذه الأمة.

ونختم هذا البحث بما جاء في القانون المصري للمحاكم الشرعية، وهو المعروف بقانون (٢٥ المؤرخ ١٠ مارس سنة ١٩٢٩) تحت عنوان «الطلاق» ما نصه:

١ ــ لا يقع طلاق السكران والمكره.
٢ ــ لا يقع الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شيء أو تركه، لا غيره.
٤ ــ الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو إشارة لا يقع إلا واحدة.
٥ ــ كنايات الطلاق ــ وهي ما تحتمل الطلاق وغيره، لا يقع بها الطلاق إلا بالنية.
٦ ــ كل طلاق يقع رجعياً إلا المكمل للثلاث، والطلاق قبل الدخول، والطلاق على مال، وما نص على كونه بائناً في هذا القانون والقانون ٢٥ لسنة ١٩٢٠.

قلت: وهذا القانون المشار إليه سنة ١٩٢٠ هو ما اتفقت عليه اللجنة المؤلفة من حضرات شيخ الجامع الأزهر، وشيخ المالكية، ورئيس المحكمة العليا الشرعية، ومفتي الديار المصرية، ونائب السادة المالكية، وغيرهم من العلماء.

وإنك لتجد في المذكرة الإيضاحية لهذه الأحكام الخمسة بياناً وافياً عنها واحدة واحدة، ومَن مِن أئمة السلف، وعلماء الحديث، وفقهاء المذاهب أخذ بها، وهذه المقررات منطبقة تمام الانطباق على ما قدمنا من مذهب الشيخين ابن تيمية، وابن القيم، والله أعلم. (١)

---

(١) ثم عملت به كل البلاد العربية. تم بحمد الله تعالى

علاوة ثالثة

ترجيحه لمذهب السلف في أمر المعتقد

تمهيد:

يظن بعض الناس أن دعاة الإصلاح والتجديد لأمر الدين والتوحيد على أساس الكتاب والسنة، وما كان عليه سلف هذه الأمة، إنما يحاولون احياء الدين وإماتة ما عداه من علوم السلف وحضارتهم، أو عدم الانتفاع بما تدعو إليه الحاجة من مخترعات الغربيين ومدنيتهم، أن تعجب فعجب هذا الزعم الباطل! إن سلفنا الصالح الذين نهتدي بهديهم، ونقفو أثرهم، قد جعلهم الله هداة للناس في الدين والدنيا، وأورثهم أرض كثير من الأمم القديمة وما عليها من علوم وآداب وصناعة وعمران، ونحن نتلو أخبارهم، ونقفو آثارهم، وإن لم نبلغ شأوهم، ونستفيد من مستحدثات الأمم المعاصرة، كما استفاد سلفنا من مزايا الشعوب والأمم الغابرة.

إنا نحاول أن نكون أمة ذات مدنية عربية إسلامية، لا شرقية ولا غربية، أساسها الأخلاق والفضائل، وميزانها إقامة العدل بين الخلائق، وهذا الطراز الممتاز من المدنية نقتبسه من نور العصور الذهبية للإسلام. ولقد ذاق الناس من ظلم المدنية الحديثة ما جعل أشد الناس إيماناً بها من قبل، أشدهم بغضاً لها، وكراهية للمستبدين الظالمين من أهلها.

ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية ينصر مذهب السلف الصالح بأدلة عقلية ونقلية، ويحاول إرجاع الناس إليه بكل الوسائل، ويرى رأي إمام دار الهجرة مالك بن أنس من أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وهو رأي كل حكيم عليم بداء الأمة ودوائها قديماً وحديثاً، وقد ألف كتباً كثيرة كان معظمها يحوم حول هذه القضية، وعقدت له عدة مناظرات في مصر والشام من أجلها، وقد

أثرنا بعضها من قبل، وله رحمه الله من باب التوحيد الخالص، المجرد عن شوائب الوثنية والبدع والزوائد، كتب ورسائل، بعضها طبع و بعضها لما يطبع ونقتصر الآن على ذكر ثلاثة منها مطبوعة: (١) كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري، وهو علي بن يعقوب بن جبريل البكري الشافعي المصري (٦٧٣-٧٢٤) وترجمته في «الشذرات» (ج ٦ ص ٦٤) وهو رد على مسألة الاستغاثة بالمخلوقين، وقد لخصه ابن كثير في تاريخه (٢) كتاب الرد على الأخنائي المسمى بقاضي القضاة علم الدين ابن شمس الدين (٦٦٤-٧٣٢) وترجمته في «الشذرات» أيضاً (ج ٦ ص ١٠٣) واسمه: «الرد على الأخنائي واستحباب زيارة خير البرية، والزيارة الشرعية» وهما مطبوعان معاً بمصر سنة ١٣٤٦.

(٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة طبع المكتب الإسلامي.

وفي طلائع الكتاب الأول مباحث جليلة في مدوني التفسير والحديث والسير، والتاريخ، والجرح والتعديل، وذكر طائفة من الكتب المعتمدة، و بيان ما اتسع فيه الكذب من فضائل الأعمال والأشخاص والأماكن والزمان، وما سمعه شيخ الإسلام من جهالات بعض القضاة والمفتين والمدرسين وما رآه منهم. وقد حقق فيه أن لفظ «الاستغاثة» في الكتاب والسنة وكلام العرب، إنما هو مستعمل بمعنى الطلب من المستغاث به، وأكثر ما يقال: يا غياث المستغيثين، ومعناه المدرك عباده من الشدائد إذا دعوه، ومريحهم ومخلصهم، فلا يجوز للإنسان الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله. (قال): ولو كانت الاستغاثة بعد الموت ثابتة ثبوتها في الحياة لطلب من النبي ﷺ أن يقوم بالإمامة في الصلاة، والإمارة في الغزو، وإرسال البعوث، وعقد الألوية، والشعائر في الحرب، وإقامة الحدود، وإيصال الحقوق، وقسم المواريث والغنائم، والفيء والصدقات، وتعليمهم ما يؤمرون به مما في القلوب من المعارف والأحوال أو ما يقوم بالأبدان من الأقوال والأعمال، وإفتائهم فيما ينوبهم من المسائل والحكم بينهم فيما يتنازعون فيه من القضايا... فهذه الأمور التي كان مأموراً بها أمر إيجاب أو استحباب، وكانت حقاً عليه للخلق انتهت بموته فلم يبق عليه منها شيء، كما انتهى حق الله الذي أمره به.[1]

(١) ملخصة من صفحة ٨١، ٩٢، ١١٠ منه.

وأقول تأييداً لماذكره شيخ الإسلام: إن الصحابة الكرام، قد تناظروا بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام في أمر الخلافة، وفي جمع القرآن، وفي المعارك الدامية كوقعة الجمل وصفين والنهروان، وتناظر الشيخان في قتال مانعي الزكاة، وفي إرسال جيش أسامة، ولم يستغيثوا به في هذه الشدائد، ولا استفتوه في شيء منها، وكل هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة، ومن العقل والحس والوجدان بالبداهة، فيجب ردّ ما يتجدد من الوقائع والحوادث إلى الوحي المنزل، وما عرف من سنن الصدر الأول للإسلام. ولو كان ترك وسائل النصر والظفر، والاستنصار بغيره تعالى مفيداً لنا في شيء، لكنا اليوم أسعد الأمم حالاً، وأنعمها بالاً، وأوفرها عزة وثروة وقوة، ولكن تلك الخطة المعارضة للشرع والطبع والحس التي سلكها أولئك الناس لم تزد الأمة إلا نكالاً ووبالاً، ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذوراً﴾. (١)

ثم إن هذا المؤلف (البكري) قد جرى على عرف بعض العلماء المتأخرين الذين جعلوا الاستغاثة به ﷺ وبغيره في معنى التوسل إلى الله تعالى بجاهه وبحقه، كالسبكي في «شفاء السقام»، والقسطلاني في «المواهب»، والسمهودي في «خلاصة الوفا»، وابن حجر المكي في «الجوهر المنظم» وغيرهم. والمراد أنهم يسألون الله تعالى بحقه وجاهه أن تقضى حوائجهم، وسيأتي بحث ذلك. أما الاستغاثة بأهل القبور أنفسهم بمعنى طلب الغوث منهم أي زوال الشدة، وتفريج الهم والكرب، وقضاء سائر الحوائج، فهذه استغاثة شركية، لا تدخل في دائرة الأسباب والمسببات بحال، بل هي توسل الغلاة والجهال في الحضر والسفر، والبر والبحر، والعسر واليسر، والفرج والشدة، ونحن نجل أهل العلم والعقل والإيمان، عن الوقوع في مثل هذا الطغيان والهذيان.

وفي الكتاب الثاني لشيخ الإسلام «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» ما ملخصه: لفظ التوسل يراد به ثلاثة معان (أحدها) التوسل بطاعته ﷺ فهذا فرض

(١) سورة الإسراء: الآيتان ٥٦ و٥٧.

لا يتم الإيمان إلا به. (والثاني) التوسل بدعائه وشفاعته، وهذا كان في حياته و يكون يوم القيامة. (والثالث) التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته، والسؤال بذاته، فهذا هو الذي لم يكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه: إنه لا يجوز، ونهوا عنه حيث قالوا: لا يسأل بمخلوق[1] أ هـ.

أقول: إن التوسل في لغة الصحابة هو عبارة عن أقوال وأفعال وأحوال لم تجر سنة الله في صدورها عن غير الأحياء بين أظهر الناس، كتوسل عمر بالعباس في الاستسقاء، فهو طلب للسقيا والدعاء والصلاة على طريقة معهودة في الشرع معروفة في كتب الحديث والفقه ومنها أن يخرج المتوسل به إلى المصلى ويخرج الناس معه، فيستسقي و يدعو مستقبلاً القبلة، ويحوّل رداءه، و يصلي ركعتين، ويخطب خطبتين، أو نحوها من الهيئات الثابتة، كما يعلم ذلك من سَبَر الأحاديث الصحيحة الواردة في الاستسقاء، والمتوسل به للسقيا على تلك الهيئة أو نحوها لا يمكن أن يكون من غير الأحياء.

ثم ههنا مسألة مهمة وهي: أن حقوق الرسل عليهم الصلاة والسلام، وصلاح الصالحين، ليست من أعمال السائل التي يستحق عليها الجزاء، لا رابطة بينها وبين إجابة سؤله، فإذا قال الداعي: أسألك بحق فلان الصالح أن تقضي حاجتي، فمعنى ذلك: اقض حاجتي لكون فلان صالحاً، فأي مناسبة بين قضاء حاجتك وصلاحه؟ وإذا قلت: بجاه فلان اغفر لي، كان المعنى: طلب المغفرة لكون فلان ذا جاه، وأي مناسبة بين جاهه ومغفرة ذنبك؟ فصلاحه أو جاهه ليس منفياً عنه لا في حياته ولا عند ربه، ولا هو محل نزاع، ولكن ليس من عملك الذي تستفيد أنت منه، وتستحق الجزاء عليه، وإنما العامل هو الذي يجني ثمرة عمله في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿مَن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.[2]

---

(١) انظر «قاعدة جليلة» طبع المكتب الإسلامي، الصفحات ١٢ و٥٣ و٥٥ و٥٧ و١٧٦ منه.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

ولو كان التوسل بعمل الصالحين يفيد المتقاعسين عن العمل لهان الأمر علينا معشر المسلمين، إذ كان يمكننا أن نقول مثلاً: اللهم أزل ضعفنا، وآمن خوفنا، وانصرنا على عدونا بجاه سلفنا الصالح الذين جاهدوا في سبيلك لإعلاء كلمتك، ففتحت لهم فتحاً مبيناً، ونصرتهم نصراً عزيزاً، ربنا هب لنا من الملك والسلطان، والعلم والعرفان، والحضارة والعمران مثل ما وهبت لهم، أفترى أنه تفيدنا هذه التوسلات بجاه أسلافنا وقوتهم، وسعة سلطانهم، واستبحار عمرانهم، ونحن قد تداعت علينا الأمم فجعلتنا مغنماً، ونهباً مقسماً؟! لا لا، وإنما ننهض ونجدد إذا اهتدينا بهديهم، وكان لنا مثل عملهم.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشر في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع». وقال أيضاً: «وهكذا شأن التوسل الديني الأخروي. وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان، والأعمال الصالحة، فرب الدارين واحد، وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضاً، ولا يبطل بعضها بعضاً». أ هـ.

قلت: و يشهد له قوله تعالى: ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾(١) فهو توسل إلى الله تعالى بالإيمان والاتباع. ومن أفضل أنواع التوسل ما جعله الله تعالى دعاء للمؤمنين، ورتب عليه غفران الذنوب، وتكفير السيئات، والوفاة مع الأبرار، فقال عز من قائل: ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾(٢) وقال جلت حكمته: ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾(٣) فهذه الآيات الكريمة قد أرشدتنا إلى التوسل إليه تعالى بما شرعه من الاخلاص في الدعاء له وحده، والإيمان بما أنزله من عنده، واتباع

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦.

الرسول على الوجه الذي جاء به من عند ربه، فتأمل كيف جعل ذلك سبباً لمغفرة الذنوب، والوقاية من النار، والنظم في سلك الأبرار، وأين هذا التعليم الإلهي، والتوسل الشرعي، من المعامل التوسلية التي أنشأها المبتدعة لأنفسهم ولغيرهم، وهم يصدرون منها كل حين من التوسلات المبتدعة أنواعاً منوعة ما أنزل الله بها من سلطان ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾؟(١)!

وأما الكتاب الثالث ــ وهوالرد على الأخنائي ــ المسمى بقاضي القضاة، فسببه أن الإمام ابن تيمية قد أرسل إليه بعض أصحابه جزءاً أخبر أنه صنفه بعض القضاة، قد تكلم في المسألة التي انتشر الكلام فيها وهي السفر إلى غير المساجد الثلاثة كالسفر إلى «مجرد» زيارة القبور هل هو حرام أو مباح أو مستحب، وهي المسألة التي أجبت فيها من مدة بضع عشر سنة بالقاهرة، فأظهرها بعض الناس في هذا الوقت ظناً أن الذي فيها خلاف الإجماع، وأن السفر لمجرد قبور الأنبياء والصالحين هو مثل السفر المستحب بلا نزاع، وهو السفر إلى مسجد نبينا محمد ﷺ المتضمن لما شرعه الله من السفر إلى مسجده والصلاة فيه، والسلام عليه ومحبته وتعظيمه، وغير ذلك من حقوقه ﷺ في مسجده المؤسس على التقوى» أ هـ.

أرسل إليه بعض أصحابه هذا الجزء وأقسم عليه ليكتبن شيئاً يظهر فيه جهل مثل هؤلاء الذين يتكلمون في الدين بغير علم، وليس في الفتوى القديمة التي اطلع عليها القاضي (وهي منشورة في هذا الرد) تحريم زيارة قبور الأنبياء ولا غيرهم، ولا كان السؤال عن هذا، وإنما فيه الجواب عن السفر إلى زيارة القبور، وكتب الشيخ وفتاويه مشحونة باستحباب الزيارة، وفي جميع مناسكه يذكر استحباب الزيارة. قال ابن تيمية: وأما من كان قصده السفر إلى مسجده وقبره معاً، فهذا قد قصد مستحباً مشروعاً بالإجماع»... والجواب في السؤال كان عمن سافر لا يقصد إلا زيارة القبور لا يقصد سفراً شرعياً كالسفر إلى مكة (أي المسجد الحرام) وإلى مسجد النبي ﷺ والمسجد الأقصى.

أقول: إن هذا الموضوع بأقسامه الثلاثة: الزيارة، وشد الرحال، والتوسل، قد شغل الناس قروناً طويلة، وملأ مئات المصنفات وألوف الصفحات، وكنت

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.

قدمت اقتراحاً إلى مؤتمر العالم الإسلامي الذي انعقد بمكة (١٣٤٤ هـ-١٩٢٦ م) قربت فيه بين المذاهب المختلفة في المسائل الثلاث، ووافق عليه الأعضاء المؤتمرون جميعاً، وخلاصته:

١ — إن الزيارة الشرعية للأموات من دون شد الرحال، ليس فيها مطعن ولا مقال، وقد كان النبي ﷺ يزور سكان البقيع، وشهداء أحد، ثم قلت: إن هذا العصر عصر تآمر ملل، واتفاق دول، تخالف مصلحتها مصلحتنا معشر العرب والمسلمين، وإن كثيراً من العوام والغلاة، كلما أعوزهم كشف البلاء أو تحقيق الرجاء تركوا ما أمر الله به من إعداد القوة، والأخذ بوسائل الدفاع، ولجأوا إلى قبور بعض الصالحين، يستنجدون بهم الدفاع عنهم، وبذلك قضي على كثير من بلاد المسلمين، فدرءاً لهذه المفاسد الدينية والدنيوية، نوضح للناس أن دعاء غير الله بكشف الضر، يعد عبادة لذلك الغير ﴿فلا تدعوا مع الله أحداً﴾ (١) وفي الحديث: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» فيستفاد من ذلك أن ليس في الإسلام إلا الأخذ بالأسباب المشروعة في جميع المهمات، والاستعداد لجميع الطوارىء والحادثات بقدر الاستطاعة.

٢ — إن مسألة شد الرحال إلى المساجد الثلاثة مفروغ منها، وأن السفر إلى ما عداها من المساجد، أو لمجرد زيارة القبور، لم يعهد في الصدر الأول ولم يقع من الأئمة الهداة، وهل زيارة قبر النبي مشروعة وحدها فتشد الرحال إليها كأداء العبادة في مسجده؟ أم هي مشروعة تبعاً لأداء العبادة في المسجد؟ في المسألة قولان، ويوفق بينهما بأن الصلاة في مسجد النبي ﷺ وزيارته متلازمان، بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر، كمسألة الفقير والمسكين، والإيمان والإسلام عند الفقهاء، فلا يذكر أحدهما إلا ويراد معه الآخر، وأن تكون النية موجهة عند شد الرحال إلى أداء العبادة في المسجد، ومعها زيارته صلى الله عليه وسلم.

٣ — إن من استقرأ النصوص، وسبر غورها ظهر له منها أن التوسل إليه تعالى بالكلم الطيب، والعمل الصالح هو المشروع، وأنه هو الذي تنال به خيرات الدنيا

---

(١) سورة الجن، الآية: ١٨.

والآخرة، فرب الدارين واحد أوحكمته فيهما واحدة كما قال ابن القيم، وفي طليعة كتابه: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» تحقيق بديع لهذا المبحث، وقد أورد له القواعد والشواهد الشرعية من القرآن العظيم الذي أيد العقل والحس والفطرة وطبيعة البشر في ذلك، ولما كان بعض ظواهر النصوص يوهم شمول التوسل بالذات والجاه أيضاً، كانت المسألة خلافية، وكان فيها قولان لمثل الإمام أحمد بن حنبل، وقد ورد: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا» رواه أحمد وابن ماجه، وفي سنده عطية العوفي، وهو ضعيف كما قالوا، ولكن معناه صحيح، فحق السائلين عليه الإجابة، وحق الماشين إلى المساجد الاثابة ﴿وقال ربكم: ادعوني أستجب لكم﴾(١) فالسائلون يسألونه تعالى تحقيق ما وعدهم به، وقد تفضل فجعله حقاً لهم عليه، وتحقيق وعده هو من صفاته تعالى الفعلية، وليس ذلك من محل النزاع في شيء.

ومن المؤسف جداً عدم الاهتداء بهدي الأنبياء والصالحين، والاكتفاء بتشييد القبور، وجعلها كالقصور والقلاع، والصلاة عندها، والطواف حولها، ونذر النذور لسدنتها، و يرحم الله حافظاً القائل:(٢)

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم	وبألف ألف ترزق الأموات
من لي بحظ النائمين بحفرة	قامت على أحجارها الصلوات

والواجب يتقاضى علماء الدين الخالص، والعاملين للمدنية الصحيحة، أن يتعاونوا على إنشاء معاهد علمية في الأقطار الشرقية والغربية، تدعو إلى الله على بصيرة، وتصحح العقائد والعوائد، وتزيل المهالك والمفاسد، وتعيد عهد الأئمة، وتجدد معالم الأمة.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) هو شاعر النيل محمد حافظ إبراهيم المصري المتوفى سنة ١٣٥١-١٩٣٢.

تحقيقه لوحدة الأديان وإخوة الرسل الكرام عليهم السلام

مدخل

الإسلام وأهل الأديان السماوية

قرر الإسلام في معاملة الأمم التي يضمها تحت رايته حقوقاً تضمن لهم الحرية في ديانتهم، والفسحة في إجراء أحكامها بينهم، وإقامة شعائرها بارادة مستقلة، فلا سبيل لأولي الأمر إلى تعطيل شعيرة من شعائرهم، ولا يدخل في فصل نوازلهم الخاصة، إلا إن تراضوا بالمحاكمة أمام محكمتنا، فتحكم بينهم على قاعدة العدل والمساواة، قال تعالى: ﴿وإن حكمتَ فاحكمْ بينهمْ بالقسطِ، وإنّ الله يحبُّ المقسطين﴾ (١) وإبقاء الرعية على شرائعهم وعوائدهم منظر من مناظر السياسة العالية، وباب من أبواب العدالة السامية. والأصل في كل مملكة أن يكون حق الولاية الشرعية في يدها دون سواها، بحيث تفصل المحاكم التابعة لها في جميع قضايا من تقلهم أرض الوطن، سواء كان النزاع متعلقاً بالجرائم، أو الأموال، أو الأحوال الشخصية، ولكن عملاً بحرية الأديان والمعتقدات قيدت هذه الولاية وانحصر سلطانها في الأمور الدنيوية، وأصبح كل انسان حراً في أحواله الدينية وما يتبعها.

تنظر إلى أبواب الشريعة فتبصر في جملتها أحكاماً كثيرة مبنية على التسامح مع غير المحاربين، تطالع أبواب الهبة والوقف والوصية فتستفيد من أحكامها أن الإسلام لم يقتصر على إباحة معاملتهم بمعاوضة، بل أجاز للمسلم أن يهب جانباً من ماله أو يوقفه أو يوصي به لغير المسلم، أمر الإسلام بالعدل والإحسان في معاملتهم،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٢.

والرفق بضعيفهم، وسدّ خلة فقيرهم، وحرم الاعتداء عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم.

آيات التوحيد الخالص في الكتب السماوية

من تصفح كتب العهدين القديم والجديد ومزامير داود (التوراة والانجيل والزبور) وجدها طافحة بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، والوعيد الشديد على الشرك، مملوءة بالبشارات بظهور رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة، فأما تنزيه الإله والرب عن الوالد والولد، وعن الند والضد، فتراه في الفصول والأعداد، (وهي كالسور والآيات) من أسفار التوراة، كتثنية الاشتراع، وسفر الخروج، وأشَعْيَاء، مثل قوله: «إن الرب هو الاله، وليس أخر سواه» «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي» «لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غيور» «ولكي يعلموا من مشرق الأرض ومن مغربها أن ليس غيري، أنا الرب وليس آخر».

وفي إنجيل مَرقُس: فأجابه يسوع: «إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد» (الفصل ١٢ عدد ٢٩). وفي إنجيل يوحَنّا: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» (الاصحاح ٣/١٧).

وليس من قصدي استيفاء آيات التوحيد الخالص من الكتب المقدسة فهي كثيرة، ولا نقل البشائر التي لا تنطبق إلا على النبي العربي محمد خاتم النبيين فقد نقل منها المحقق الكبير الشيخ رحمة الله الهندي الشهير، في كتابه (إظهار الحق) عن الكتب المعتبرة عند علماء البروتستانت ــ ثماني عشرة بشارة، وسبقه إلى مثل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية الذي عقدنا هذا الفصل للكلام على كتابه «الجواب الصحيح»، وتبعه فيه تلميذه الإمام ابن القيم في كتابه «إرشاد حيارى».

وحسبي الآن أن أنقل شاهداً واحداً من التوراة، وآخر من الانجيل، وكلمات قليلة من الزبور أو المزامير، تأييداً لما جاء في القرآن من بشائر الوحدة والسلام،

والهتاف ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام، لكي لا يكون على المؤمنين بالكتب المقدسة حرج إذا هم صدقوا برسالة النبي العربي الذي آمن بكتب اخوانه المرسلين وصدقهم، ولتقوم الوطنية على أساس المساواة التامة بين أبناء الوطن الواحد، وهذا موضوع جليل، ومطلب خطير، يهم أهل الملل السماوية، وعلماء الإجماع الإنساني، لأنه يدعو إلى الوحدة الصحيحة، بلسان الكتب الإلهية، والعاملين بها، ومن واجب العلماء بيان هذه الوحدة الدينية من الكتب المنزلة، لتؤيد بها وحدتنا القومية.

بشارة موسى بمحمد

جاء في العدد الخامس عشر من الاصحاح (أو الفصل كما في الطبعة اليسوعية من سفر التثنية) (١) من التوراة: «ويقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي، له تسمعون» فهذه البشارة صريحة في محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، لأنه لم يقم نبي مثل موسى من وسط اليهود، ومن أخوتهم بني إسماعيل غير النبي العربي محمد، وأبناء العم يسمون أخوة، ومن ذلك تسمية أبناء عمهم (عيسو) إخوة له كما في ٤:٢ و ٨ من التثنية، ولو كان المراد من هذه البشارة المسيح عليه الصلاة والسلام لقال: أقيمه منكم أو من نسلكم، لا من إخوتكم، لأن يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم، كما في متى (١:١١-١٦) فهو من نسل إسحق، لا من نسل إسماعيل عليهم السلام.

بشارة الإنجيل بالنبي العربي

جاء في إنجيل يوحنا «(١٦: ١٢ و١٣ إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء روح الحق، فهو يرشدكم إلى الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع، يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية» فمحمد هو الذي كان يتكلم بما يسمع من وحي الله إليه، قال تعالى: ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾(٢) ومملكة محمد هي مملكة الله في

---

(١) التثنية: اسم السفر الخامس من أسفار العهد القديم، وقد أطلق عليه التثنية، لأنه ذكرت فيه الشريعة الموسوية مرة ثانية.

(٢) سورة النجم: الآيتان ٣ و٤.

الأرض المسماة في العهد الجديد بملكوت الله، وبملكوت السموات، وكان المسيح وتلاميذه يبشرون الناس بمجيئها، وأمر عليه السلام أن يطلبوا إتيانها من الله في صلواتهم، انظر متى (٢:٣ و ١٧:٤، ٢٣ و ١٠:٦ و ٣١:١٣، ٣٢ و ١:٢٠-١٦ و ٣٣:٢١-٤٤ ولوقا: ٩:١٠، ١١) وهذه المملكة هي التي بدأت صغيرة ثم نمت وكبرت حتى ملأت العالم، ولذلك شبهها عليه السلام بالزرع الجيد، وبالخميرة، وبحبة الخردل، التي تصير أكبر البقول، حتى إن طيور السماء تأتي وتتأوى في أحضانها، (وفي طبعة الجزويت: تستظل في أغصانها، متى ٢٤:١٣-٣٥) وهي منطبقة على ما في القرآن الكريم في محمد وأتباعه، ﴿ومَثَلُهم في الإنجيل كزرع أخرج شَطْأه فآزره، فاستغلظ، فاستوى على سُوقه﴾[1] شطأه: أي فراخه، يقال: أشطأ الزرع، إذا فرّخ، فآزره من المؤازرة، وهي المعاونة، أي فشدّ أزره وقواه، فاستوى على سوقه: فاستقام على قصبه، جمع ساق. وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام، والنبي عليه السلام، قام وحده ثم قواه الله بمن آمن معه، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف به مما يتولد منها، حتى يعجب الزارع.

بشارة حبَقُّوق وذكر بلاد العرب فيها

قال حبقوق[2] (٣:٣ و ٤) «الله جاء من تيمان، والقدوس من جبال فاران، سِلاَهْ[3] جلاله غطى السموات، والأرض امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور، له من يده شعاع، وهناك استتار قدرته».

فتيمان بلاد العرب، ومعنى كلمة تيمان الصحراء الجنوبية، لأنها جنوب بلاد الشام، ولا يزال الآن على طريق القوافل بين دمشق ومكة قرية تسمى (تيماء) ومعنى هذه الكلمة أيضاً الصحراء الجنوبية، وتيماء أيضاً اسم قبيلة اسماعيلية

---

(١) سورة الفتح: الآية ٤٨.

(٢) نبوة حبقوق: هي السفر الخامس والثلاثون من أسفار العهد القديم حسب ترتيبها الأصلي، وأما زمن كتابتها فقبل المسيح بنحو ستمائة سنة كما بين قاموس الكتاب المقدس.

(٣) قال بعض المحشين: سلاه: اختلفوا في تفسيرها على أقوال، أرجحها في رأينا وهو ما ذهب إليه أشهر المتأخرين من علماء العبرانية ــ إنها عبارة عن الأمر بالسكوت أو الوقف ــ إيعاز للمنشدين أن يقطعوا الغناء ويتخذوا فترة تنفرد فيها الآلات باللحن.

تسلسلت من تيماء، وكانت تقطن بلاد العرب (تك ٢٥:١٥ و ١١ ي ١/٣٠) كما في قاموس الكتاب المقدس العربي. أما جبل فاران فهو في البرية التي سكنها إسماعيل أبو العرب (تك ٢١/٢١) فكأن حبقوق أشار بعبارته هذه إلى مسكن رسول الله، وهو بلاد العرب (أو التيمان) وإلى مسكن أصله، أو جده إسماعيل، وهو برية فاران.

التصريح ببكة وهي مكة

ومنه قول المزمور الرابع والثمانين (٥ و ٦): طوبى لأناس عزهم بك، طرق بيتك في قلوبهم، عابرين في وادي البكا.

والأصل العبراني: وادي (بكة) فأبدِل لفظ (بكا) بلفظ (بكة) وهي (مكة) في نص القرآن.[١]

التصريح باسم محمد

من ذلك ما جاء في الفصل الخامس من النشيد ١٦ (حلقه حلاوة، وكله مشتهيات، هذا حبيبي) هذه ترجمة البروتستانت، وترجمة اليسوعيين: (حلقه أعذب ما يكون، بل هو بجملته، هذا حبيبي).

ولفظ مشتهيات في الأصل العبراني (محمديم) والقواميس العبرانية تقول: ان هذه اللفظة لا تفيد مشتهيات، ولكن تفيد أنه محمود، ونقول: إن هذه صريحة في نبينا عليه السلام، وقوله قبلها: (حلقه حلاوة) كناية عن فصاحة كلامه، لم يأت نبيّ بكلام أحلى مما جاء به خاتم الأنبياء، وقوله بعدها: (هذا حبيبي) نصّ في لقب النبي عليه الصلاة والسلام، فإنه حبيب الله عزّ وجل.

ومنه ما جاء في الفصل الثاني من النشيد: أسمعيني صوتك، لأن صوتك لطيف، ووجهك جميل، وفي الاصل العبراني: (عرب) بدل (جميل) أي عربي. ومنه ما في الفصل الثاني من نبوة حجّي أو حجاي أو حكاي ــ كما في الأصل

---

(١) ضبطنا الألفاظ العبرية على أهلها، ونقلنا بعض معانيها إلى العربية بالتعاون معهم. والآية القرآنية هي: ﴿إن أول بيت وضع للناس للّذي ببكّة مباركاً وهدىً للعالمين﴾ آل عمران: ٩٦.

العبري: ٧ (وازلزل كل الامم و يأتي مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود). وكلمة مشتهى هذه، أصلها العبراني (حِمّداتْ) ومعناه محمود، وهي من الفعل العبراني (حَمَدْ).

علمنا من هذه النصوص والبشائر الصريحة في الكتب المقدسة أنها بشرت بالنبي العربي، وذكرته باسمه الكريم، صرحت باسم بلاده، ومحل ميلاده وهو مكة.

أفرأيتم كيف ألفت هذه النصوص الصريحة بين الأديان الثلاثة؟ وهذا هو الاخاء الصحيح، بين محمد وموسى والمسيح، عليهم الصلاة والسلام، وهذا بعض نصوصه وبشائره، وهي قليل من كثير مما عثرنا عليه، ولو اقتصر رجال الكنيسة الأكارم على ما بين أيديهم من الكتب المقدسة، دون عقائد وعوائد ليست في هذه الأناجيل التي هي أصل العقيدة ومستندها ــ لاجتمعت الكلمة، وأحكمت عرى المودة القلبية بين المختلفين.

الجوابُ الصّحيحُ لمن بدّل دين المسيح

يقع هذا الكتاب المطبوع بمصر (١٣٢٢ هـ = ١٩٠٥ م) في أربعة أجزاء وهي تبلغ أكثر من الف وأربعمائة صفحة بالقطع المتوسط، وقد ذكر شيخ الإسلام في طلائع كتابه أنه جعله جواباً لكتاب ورد من قبرس «فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتج به علماء دينهم، وفضلاء ملتهم قديماً وحديثاً من الحجج السمعية والعقلية، فاقتضى أن نذكر من الجواب، ما يحصل به فصل الخطاب، (ثم قال): وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانهم (١) ــ فصلاً فصلاً، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعاً وأصلاً، وعقداً وحلاً... فان هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك، و يتناقلها علماؤهم بينهم، والنسخ بها موجودة قديمة، وهي مضافة إلى بولص الراهب أسقف صيدا الانطاكي كتبها إلى بعض أصدقائه، وله مصنفات» وقد اشتمل رد شيخ الإسلام على ستة فصول:

(١) دعواهم أن محمداً ﷺ لم يبعث إلا إلى أهل الجاهلية من العرب.

(٢) دعواهم أن القرآن أثنى على دينهم الذي هم عليه.

(٣) دعوى أن نبوات الأنبياء المتقدمين تشهد لدينهم الذي هم عليه من الأقانيم

---

(١) إن من يراجع المطبوع الآن من التوراة والانجيل وأعمال الرسل يجد بعض الاختلاف فيما أورد شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه. وما ذكره من قبله الإمام ابن حزم وغيرهما من علماء الملل والنحل. وسبب ذلك أن هؤلاء العلماء ذكروا ما وجدوا بين أيديهم من كتب أهل الكتاب، تبعاً للطريقة العلمية بذكر النص كما هو. والاختلاف إنما جاء من ترجمة ونسخ أهل الكتاب لكتبهم. حتى المطبوعة منها في لغة واحدة عند إعادة طبعها تبدل فيها العبارات والنصوص. والزمن بين الطبعة الأولى والثانية لا يتجاوز الخمس سنوات. فضلاً عن المخطوطات والمنقولات من لغة إلى أخرى، أو البعد الزمني الذي قد يكون مئات السنين ــ الناشر ــ.

والتثليث والاتحاد وغير ذلك.

(٤) فيه تقرير ذلك بالمعقول.

(٥) دعوى أنهم موحدون والاعتذار عما يقولونه من ألفاظ يظهر منها تعدّد الآلهة كألفاظ الأقانيم الخ.

(٦) أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال، فلا حاجة بعد النهاية إلى شرع مزيد على الغاية.(١)

والغرض الأول من تأليف «الجواب الصحيح» على ما يظهر، هو بيان أصول الشرائع السماوية والكتب المنزلة، وانها واحدة (وقال): وهذا أصل دين المسلمين، فمن كفر بنبي واحد، أو كتاب واحد، فهو عندهم كافر، ﴿.. كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله﴾.(٢)

والمنسوخ التي تنوعت فيه الشرائع قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب والرسل، فان الذي اتفقت عليه هو الذي لا بد للخلق منه في كل زمان ومكان، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾(٣) وعامة السور المكية كالأنعام، والأعراف، وآل حم، وآل طس، وآل الر ــ هي من الأصول الكلية التي اتفقت عليها شرائع المرسلين، كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والصدق والعدل والاخلاص، وتحريم الظلم والفواحش والشرك، والقول على الله بلا علم وعامة ما عندهم من النقول الصحيحة عن الأنبياء من التوراة والإنجيل والزبور ونبوات الأنبياء، توافق المنقول عن محمد ﷺ يشهد هذا لهذا، وهذا لهذا، وذلك من دلائل نبوة محمد ﷺ ومن دلائل نبوة أولئك الأنبياء.(٤)

الابن وروح القدس لا اختصاص لهما بالمسيح عليه السلام

وقد أوضح أن الابن ليس كلمة ولا صفة، ولا هو خاص بالمسيح، وإنما يراد

---

(١) ص ١٩ و٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

(٤) ج ٣ ص ٢٤٥.

به المصطفى المكرم، (قال)[1]: المراد بالابن ناسوت المسيح، وبروح القدس ما أنزل عليه من الوحي، والملك الذي نزل به، فيكون قد أمرهم بالإيمان بالله وبرسوله، وبما أنزله على رسوله، والملك الذي نزل به، وبهذا أمرت الأنبياء كلهم (قال)[2]: وليس في كلام المسيح ولا في كلام سائر الأنبياء ولا كلام غيرهم أن كلمة الله القائمة بذاته سبحانه وتعالى تسمى ابناً ولا روح قدس، ولا يوجد قط في كلام الأنبياء اسم الابن واقعاً إلا على مخلوق، والمراد في تلك اللغة أنه مصطفى محبوب الله، كما ينقلونه أنه قال لإسرائيل: إنه ابنه بكره، ولداود أنت ابني وحبيبي، وان المسيح قال للحواريين: أبي وأبيكم، فجعله أباً للجميع، وهم كلهم مخلوقون: فيكون اسم الابن واقعاً على المسيح، الذي هو ناسوت مخلوق قال[3]: وفي الإنجيل في غير موضع يقول المسيح: أبي وأبيكم كقوله: «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم» فيسميه أباً كما يسميهم ابناً له، فإن كان هذا صحيحاً، فالمراد بذلك أنه الرب المربي الرحيم، فإن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها... فيكون المراد بالأب الرب، والمراد بالابن عبده المسيح الذي رباه.

وأما روح القدس فهي لفظة موجودة في غير موضع من الكتب التي عندهم وليس المراد بها حياة الله باتفاقهم، بل روح القدس عندهم تحل في ابراهيم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء والصالحين، وروح القدس قد يراد بها الملك المقدس، و يراد بها الوحي والهدى والتأييد الذي ينزله الله بواسطة الملك أو بغير واسطة.

(وفي ص ٩٦): فالذي فسر (بعض) النصارى به ظاهر كلام المسيح، هو تفسير لا تدل عليه لغة المسيح، وعادته في كلامه، ولا لغة غيره من الأنبياء والأمم، بل المعروف في لغته وكلامه، وكلام سائر الأنبياء تفسيره بما فسرناه، وبذلك فسره أكابر علماء النصارى.

(وفي ص ٣٣٢ من ج ٢): بل أفصح في كل الإنجيل من كلامه ومخاطباته ووصاياه بما لا يحصى كثرة بأنه عبد مثلكم ومربوب معكم، ومرسل من عند ربه وربكم، ومبدي ما أمر به فيكم، وحكى مثل ذلك من أمره حواريوه وتلامذته،

---

(١) ج ١ ص ٢٥٠.
(٢) ج ٢ ص ٦٥.
(٣) ج ٢ ص ٩٤ و٩٥.

ووصفوه لمن سأل عنه، ومن كلامهم بأنه رجل جاء من عند الله عز وجل، ونبي له قوة وفضل.(١)

(وفي ص ٢٤٤): ولفظ الابن عندهم في كتبهم يراد به من رباه الله تبارك وتعالى، فلا يطلق عندهم في كلام الأنبياء لفظ (الابن) قط إلا على مخلوق محدث، ولا يطلق إلا على الناسوت دون اللاهوت، فلا يسمى عندهم إسرائيل ابناً، ولا داود ابناً لله والحواريون كذلك، فتبين أن العارف كلما تدبر ما قالته الأنبياء وما قاله أهل البدع من... وغيرهم لم يجد لهم في كلام الأنبياء إلا ما يدل على نقيض ضلالهم.

وقد بين في (ص ٣٠٦ ج ٢): فلسفتهم في الأقانيم الثلاثة (الأب والابن وروح القدس) وأعظم فرقهم في ذلك العهد اليعقوبية والملكانية والنسطورية وقد اختلفت وجهات نظرهم واستغرقت صفحات كثيرة. وذكر القائلين منهم، بالأمانة، واختلافهم في تفسيرها وامتناع تصورها على الوجه الصحيح، وهنا تظهر سعة علم شيخ الإسلام بالفِرق، واطلاعه على مقالاتها وإحاطته بفلسفتها، وقوة عقله في إظهار تعارضها وفي ردها كلها بالمنقول والمعقول.

التوحيد الصحيح في كلامهم

ثم خلص إلى إفراد الله تعالى بالوحدانية والعبادة على ألسنة طوائف منهم، (وقال ص ٣٠٩): وقال الأريوسية: إن الله ليس بجسم ولا أقانيم له، وإن المسيح لم يصلب ولم يقتل، وإنه نبي.

وحكى عن بعضهم أنه قال: المسيح ليس بابن الله (أي بنوة لاهوت) وحكى عن بعضهم أنه ابن الله على التسمية والتقريب (إلى أن قال): وهذا الذي نقله عنهم أبو الحسن الزاغوني، هو نحو ما نقله عنهم القاضي أبو بكر ابن الطيب والقاضي أبو يعلى وغيرهما، (قال): وقال أبو محمد بن حزم: النصارى فرق، منهم أصحاب أريوس، وكان قسيساً بالاسكندرية، ومن قوله: التوحيد المجرّد، وان عيسى عبد مخلوق، وأنه كلمة الله التي بها خلق السموات والأرض (أي وهي كلمة «كن») وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية، وأول من تنصّر

(١) ج ٢ ص ٣٣٢.

من ملوك الروم، وكان على مذهب أريوس هذا.

(قال ابن حزم): ومنهم أصحاب بولس الشمشاطي، وكان بطرياركاً بأنطاكية قبل ظهور النصرانية، وكان قوله بالتوحيد المجرّد الصحيح، وان عيسى عبدالله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله في بطن مريم من غير ذكر، وانه إنسان لا إلهية فيه البتة، وكان يقول: لا أدري ما الكلمة ولا روح القدس.

(قال): وكان منهم أصحاب مقدينوس ــ وكان بطرياركاً بالقسطنطينية بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين بانيها ــ وكان هذا الملك أريوسياً كأبيه، وكان من قول مقدينوس هذا التوحيد المجرّد، وان عيسى عليه السلام عبد مخلوق، إنسان نبي رسول كسائر الأنبياء عليهم السلام، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله، وأن روح القدس والكلمة مخلوقان، خلق الله كل ذلك.

رسالة الحسن بن أيوب إلى أخيه

وهذه الرسالة من أخ دان بالتوحيد الخالص، وكتبها إلى أخيه، وذكر له سبب إسلامه فيها، ثم ذكر فرق النصرانية الثلاث، وناقشهم في مذاهبهم وقضاياهم واحدة واحدة، وهي من أمتع الرسائل وأبلغها، وفيها أدق المباحث وأهمها، لم تترك شبهة إلا كشفتها، ولا حجة إلا جلّتها، ومن قرأها بتدبر وإمعان علم ما علمناه منها، فقد سبرت غور المسائل، وقابلت بين الأشباه والنظائر، وأتت بأحسن النتائج، التي تسكن إليها النفس ويطمئن بها القلب، ثم هي تزيل الفروق بين الأديان، وتجعل أهلها عباداً للرحمن، لا لبني الإنسان.

وقد أوردها في «الجواب الصحيح» فبلغت ثلاثاً وخمسين صفحة (ج ٢/٣١٢-٣٦٣) وصفحتين من أول الثالث.

ذكر مؤلفها فيها أن مريم ولدت إنساناً (عليها السلام) وأنه جرى عليه أحكام الآدميين من غذاء وتربية، وصحة وسقم، وخوف وأمن، وتعلم وتعليم، لا يتهيأ لكم أنه كان منه في تلك المدة من أسباب اللهوتية شيء ولا له من أحوال الآدميين كلها ــ من حاجاتهم وضروراتهم، وهمومهم ومحنهم وتصرفاتهم ــ مخرج.

ابن الله ومعناه

(قال): وقد علمتم أن من يسمى بابن الله كثير لا يحصون، فمن ذلك إقراركم أنكم جميعاً أبناء الله بالمحبة، وقول المسيح (عليه السلام): أبي وأبوكم، وإلهي وإلهكم، في غير موضع من الإنجيل، ثم تسمية (الله) يعقوب وغيره (بنيه) خصوصاً، فالسبيل في المسيح إذا لم تلحقوه في هذا الاسم بالجمهور، أن يجري في هذه التسمية مجرى الجماعة الذين اختصوا بها من الأنبياء والأبرار، ونسبة الملك إياه إلى أبيه داود، تحقق أن أباه داود، وان التسمية الأولى (أي ابن الله) على جهة الاصطفاء والمحبة، وإن حلول الروح عليه على الجهة التي قالها «متى» التلميذ للشعب عن المسيح في الإنجيل: «لستم أنتم متكلمين، بل روح الله تأتيكم تتكلم فيكم». فأخبر أن الروح تحل في القوم أجمعين وتتكلم فيهم.

عشرون ألف آية تنطق بعبودية المسيح لله تعالى

ومن تمام كلام الحسن بن أيوب (٣٦١ من ج ٢) قوله: وإذا نظر في الإنجيل وكتب بولص وغيره ممن يحتج به النصارى وجد نحواً من عشرين الف آية [١] مما فيه اسم المسيح، وكلها تنطق بعبودية المسيح، وأنه مبعوث مربوب، وأن الله اختصه بالكرامات، ما خلا آيات كثيرة مشكلات، قد تأولها كل فريق من أولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد، وتركوا المعظم الذي ينطق بعبوديته. وقال في أواخر هذه الرسالة:

ومن أعجب العجب أن تكون أمة كتابها ودعوتها ومعبودها واحداً، يتمسكون بأمر المسيح عليه السلام وتلامذته وإنجيله، وسنته وشرائعه، وهم مع ذلك مختلفون فيه أشد الاختلاف، فمنهم من يقول: إنه عبد ومنهم من يقول: أنه إلـه إلخ.

وقد ختم شيخ الإسلام كلام هذه الرسالة بقوله في أول الجزء الثالث من جوابه: هذا آخر ما كتبته من كلام الحسن بن أيوب ــ وهو ممن كان من أجلاء علماء النصارى، وأخبر الناس بأقوالهم، فنقله لقولهم أصح من نقل غيره، وقد ذكر في كتابه من الرد على ما يحتجون به من الحجج العقلية والسمعية، وما يبطل قولهم

---

(١) أي أمارة أو علامة.

من الحجج السمعية والعقلية ـ ما يبين ذلك. (قال): ونحن نذكر مع ذلك كلام من نقل مذاهبهم من أئمتهم إلخ، ثم وصف كتاب «نظم الجوهر» لابن البطريق ـ بطريرك الاسكندرية ـ وصفاً شاملاً لأخبارهم ومجامعهم واختلافهم، وسبب أحداثهم ما أحدثوه مع انتصار ابن البطريق لقول الملكية، والرد على من خالفهم.

(وفي ص ١٦٩ ج ٣): ومن أجل من جمع أخبارهم عندهم (أي الطوائف المختلفين في التثليث والاتحاد، وأن كل صنف يحكي أقوالاً غير الأقوال التي حكاها الآخرون) سعيد بن البطريق ـ بطريرك الاسكندرية ـ في أثناء المائة الرابعة من دولة الإسلام، وقد فند هذا البطرق أقوال النسطورية والملكانية، وفند شيخ الإسلام أقوال الطوائف كلها بالعقل والنقل ولم يبق زيادة لمستزيد.

(وفي ص ٢٢٢ ج ٣): ذكر ما امتاز به القرآن على التوراة.

(وفي ص ٢٤٤): أن جمهور المسلمين لايعلمون نبوة أحد من الأنبياء قبل محمد ﷺ إلا باخبار محمد ﷺ بنبوتهم، فلا يمكنهم التصديق بنبوة أحد من هؤلاء إلا بعد التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ما اتفقت عليه الكتب والرسل

ثم انتقل في الجواب الصحيح إلى ذكر ما اتفقت عليه الكتب والرسل من الأصول الكلية العامة، وإلى ما جاء في التوراة من الجمع بين التوراة والإنجيل والقرآن، والرسل الثلاثة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام: «تجلى الله في طور سينا، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران» وإلى بشارة السفر الأول من التوراة بمحمد، وبشائر الزبور به ـ وهو مزامير داود ـ وقد ذكرنا قبل هذا شواهد من هذه الكتب الثلاثة المقدسة.

وفي الجواب الصحيح (٢٨٢/٣) قال كثير من العلماء واللفظ لمحمد بن قتيبة: ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض، لأن مجيء الله من طور سينا إنزاله التوراة على موسى من طور سينا كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا، وكذلك يجب أن يكون اشراقه من ساعير، إنزاله الإنجيل على المسيح، وكان المسيح من ساعير أرض الجليل بقرية تدعى ناصرة، وباسمها سمي من اتبعه من نصارى،

وكما وجب أن يكون اشراقه من ساعير المسيح، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران، انزاله القرآن على (محمد ﷺ) وجبال فاران هي جبال مكة.

(قال): وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة، فان ادعوا أنها غير مكة... قلنا: أليس في التوراة أن ابراهيم أسكن هاجر واسماعيل (فاران)؟! وقلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتاب بعد المسيح؟

(ثم قال): ولا يمكن أحداً أن يدعي أنه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأرض، ولا بعث نبي، فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا ارسال محمد ﷺ، وهو سبحانه ذكر هذا بالتوراة على الترتيب الزماني، فذكر إنزال التوراة، ثم الإنجيل ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله وهداه. وإلى أماكن هذه الكتب الثلاثة أشار القرآن الكريم، قال في الجواب الصحيح (ص ٣٨٦): فقوله تعالى: ﴿والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين﴾[١] إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداه، وأنزل فيها كتبه الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن، كما ذكر الثلاثة في التوراة.

بشائر للنبوات بالنبي العربي، والتصريح باسمه

ثم ذكر في «الجواب الصحيح» بشائر النبوات بالنبي العربي، وفي اشعياء: «اسم محمد، موجودإلى الأبد» قال أشعياء: يا محمد يا قدوس الرب، «اسمك موجود من الأبد» قالوا: فهل بقي بعد ذلك لزائغ مقال، أو لطاعن مجال؟ (ص ٣٠٧). وفيه أيضاً التصريح باسمه (أحمد) و (محمد). وقال أشعياء: «إنما سمعنا من أطراف الأرض صوت (محمد)» وهذا إفصاح من أشعياء باسم رسول الله ﷺ (٣/٣١٠). وفي حبقوق التصريح باسم محمد مرتين: «إن الله جاء من التيمن، والقدوس من جبال فاران، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد ﷺ وامتلأت الأرض من حمده، شعاع منظره باسم النور، يحوط بلاده بعزه (إلى أن قال): وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء» (ثم قال): وهذه النبوة لا تليق إلا

(١) سورة التين، الآية: ١-٣.

بمحمد، ولا تصلح إلا له، ولا تدل إلا عليه، فمن حاول صرفها عنه فقد حاول ممتنعاً.

وفي (ج ٤ ص ٥) في كلمة الإنجيل وتفسيرها، قالوا: وقال يوحنا الإنجيلي، قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر من إنجيله: إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء. وقال يوحنا التلميذ أيضاً عن المسيح: إنه قال لتلاميذه: إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد روح الحق الخ.

وذكر بشارات أخرى من هذه الأناجيل، وتوسع في شرح هذه البشائر واحدة واحدة، وجملة جملة، وبين وجه دلالتها على النبي ﷺ وانطباقها عليه دون غيره، (إلى أن قال ٤/١٤): وأيضاً فإن معنى الفارقليط إن كان هو الحامد أو الحماد أو الحمد أو المعز، فهذا الوصف ظاهر في محمد ﷺ فإنه وأمته الحمّادون الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب لواء الحمد.

ثم عقد فصولاً في اعجاز القرآن من وجوه متعددة، من جهة اللفظ، والنظم، والبلاغة، ومعانيه التي أمر بها، والمغيبات التي أخبر عنها، وما وصف به المعاد، وما أقامه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة، قال: وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن فهو حجة على إعجازه، وكل قوم تنبهوا لما تنبهوا له. وعقد فصولاً أخرى في سيرة النبي، وفي هديه وأوصافه وأخلاقه، وذكر معجزاته في نفسه وفي خلفائه (إلى ص ١٢٠) ثم ما أخبر بوقوعه في الأحاديث الصحيحة. ثم قال بعد سرد إخباره ﷺ بالمغيبات (ص ١٤٨): وهذا وأمثاله مما أخبر به من المستقبلات، فوقع بعده كما أخبر، ورأى الناس ذلك، وأما ما أخبر به مما لم يقع إلى الآن فكثير. ثم ذكر شواهد مما تواتر عند علماء التاريخ أو السير، أو النحو، أو اللغة، أو الحديث دون غيرهم، وبيان أن المحدثين أوثق وأضبط من جميع هؤلاء.

وقال (ص ٢٣٥): وعامة ما ذكرناه من آيات النبي ﷺ هي من موارد اجماعهم، لا من موارد نزاعهم.

وفي (ص ٣٠٦): والرجل الصادق البار يظهر على وجهه من نور صدقه،

وبهجة وجهه، سيما يعرف بها.

ونقل عن القاضي عياض ــ في صدق نبوة النبي ــ قوله: إذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره، وحميد سيره، وبراعة علمه، ورجاحة عقله وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشاهد حاله وصواب مقاله، لم يمتر في صحة نبوته، وصدق دعوته، (قال): وكفى هذا غيرَ واحد في اسلامه والإيمان به.

في أواخر الفصل الذي ختم به شيخ الإسلام «الجواب الصحيح» ما نصه: وفي خبر الجلندي ملك غسان لما بلغه أن الرسول ﷺ يدعوه إلى الإسلام فقال الجلندي: والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهي عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يَغلِب فلا يبطَر، ويُغلَب فلا يضجر، ويفي بالعهد، ينجز بالموعود وأشهد أنه نبي.

وقال نفطويه في قوله تعالى: ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾[(١)] هو مثل ضربه الله لنبيه، يقول: يكاد منظره يدل على نبوته وإن لم يتل قرآناً كما قال ابن رواحة[(٢)]:

لو لم يكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تأتيك بالخبر

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٢) الصحابي الجليل أحد شهداء مؤته ــ رضي الله عنه.

العقل والنّقل عند الإمام ابن تيميّة

تمهيد

في كتاب «العقود الدرّية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية» لتلميذه الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي (-٧٤٤ هـ) ما يأتي: «وله كتاب في الردّ على المنطق مجلد كبير، وله مصنفان آخران في الردّ على المنطق» أهـ (ص ٣٦).

قلت: أحدها كتاب الرد على المنطقيين، وقد طبع في بومباي (سنة ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م) في نحو خمسمائة وخمسين صفحة، والثاني (نقض المنطق) وقد طبع بمصر (سنة ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م) وقد بلغ مائتين وعشر صفحات، ولم أهتد إلى الثالث ولعله كتاب «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» المطبوع على هامش كتاب منهاج السنة النبوية، بالمطبعة الكبرى الأميرية بمصر سنة ١٣٢١ هـ في أربعة أجزاء كبار، وهو كتاب حافل عظيم المقدار، ردّ فيه الإمامُ على الفلاسفة والمتكلمين.[1]

وفي هذا الكتاب الجليل كغيره ــ من كتب شيخ الإسلام ومصنفاته وفتاويه ــ ترجيح لمذهب السلف في الاعتقاد على مذهب المتأخرين، وبيان أن أهل الحديث هم أولى بالصواب، وفيه دفع ما يورده حذاق علماء الكلام والفلسفة في مسائل الأسماء والصفات والأفعال، ونقض قواعدهم وأقوالهم، مما لا تؤيده فطرة سليمة، ولا ميزان مستقيم، ولا عقل صريح، ولا نقل صحيح، ويجمع ذلك كله

(١) ثم ظهر أن هذا الذي كان مطبوعاً في حياة استاذنا البيطار ــ رحمه الله ــ أقل من ثلث الكتاب. وقد قام الصديق الدكتور رشاد رفيق سالم بجمع مخطوطات هذا الكتاب وباشر طبعه بمصر سنة ١٣-١٩ ثم أتمه في ١١ مجلداً في المملكة العربية السعودية باسم «درء تعارض العقل والنقل» ونال عليه جائزة الملك فيصل رحمه الله. وانتهزت دار الكنوز الأدبية في بيروت. تعذر الحصول على نسخه، فطبعته ويسرته للناس.

الانحراف عما نزلت به الكتب السماوية وجاءت به الرسل، واهتدى به السلف. وقد أوضح شيخ الإسلام في هذا الكتاب وغيره طريقته في إثبات الأسماء والصفات، وفي بيان منشأ غلط المعطلة والنفاة، ودافع فيه عن حقائق الإسلام كتاباً وسنة ونصراً لمذهب السلف الصالح، ورد مقالات الفرق الزائفة التي وصفت بأنها جهالات وضلالات، ونقض أقوال المنحرفين عن هدي القرآن كالقدرية[١] والمعتزلة،[١] والجبرية،[٢] والجهمية،[٣] ودعاة الحلول والاتحاد،[٤] وغيرهم كثير، ومعظم الكلام معهم يدور حول تحقيق الاثبات للأسماء والصفات.

وقد بيّن أن الدليلين السمعي والعقلي والقطعيين لا يتعارضان أصلاً، وإذا تعارضا كان أحدهما قطعياً والآخر ظنياً، والقطعي منهما هو المقدّم، وما أحب أن أطيل الكلام في هذه المقدمة، ولا في الخاتمة، وحسبي أن أنقل شذرات من كتاب العقل والنقل هذا، ومن هذه النقول التي وضعنا لها عناوين مناسبة، تعلم قيمة هذا المصنف الجليل، هذا والمقال قد اشتمل على عشرات من أسماء الأعلام، من

---

(١) المعتزلة ــ ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ــ ويلقبون بالقدرية، وهم نفاة القدر القائلون بأن الله لا يعلم الأمور بعد وقوعها، والذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول: بأن الله تعالى قديم، والقدم أخص وصف ذاته، ونفوا الصفات القديمة أصلاً، فقالوا: هو عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة هي صفات قديمة ومعان قائمة به، واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل، واتفقوا على أن الإرادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته، واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار، في دار القرار.

(٢) الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف، فالجبرية الخالصة هي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً.

(٣) الجهمية: أصحاب جهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله سالم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية. ووافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية، وزاد عليهم بأشياء... والسلف كلهم من أشداء الرادين عليه، ونسبته إلى التعطيل المحض، وهو أيضاً موافق للمعتزلة في نفي الرؤية، وإثبات خلق الكلام، وإيجاب المعارف بالعقل، قبل ورود الشرع. «يراجع في هذا كله كتاب الملل والنحل للشهرستاني» ــ البيطار ــ.

أقول: إن في كتاب «الرد على الجهمية» للإمام الدارمي فوائد كثيرة، بل ان في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم كشف لضلالات هذه الفرق ما يكفي ويشفي ــ الناشر ــ.

(٤) دعاة الحلول والاتحاد: هم الذين يجعلونه سبحانه حقيقة الوجود في الموجودات، ويجعلون كل ممكن وحادث من المخلوقات هو الوجود الواجب بنفسه أي: أن الخلق هو عين الحق ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾

الصحابة الكرام، فمن بعدهم بعدة قرون، فذكرت تاريخ وفياتهم ليسهل الرجوع إلى تراجمهم في كتب التاريخ والتراجم المرتبة على الحروف أو على السنين، اللهم إلا ما سهوت عنه وما لم أجد ترجمة له، و بالله التوفيق.

باب أسماء الله تعالى وصفاته (١)

من تدبّر كلام أئمة السنة المشاهير في هذا الباب، علم أنهم كانوا أدق الناس نظراً، وأعلم الناس في هذا الباب بصحيح المنقول وصريح المعقول، وأن أقوالهم هي الموافقة للمنصوص وللمعقول، ولهذا تأتلف ولا تختلف، وتتوافق ولا تتناقض.

ذكر العلماء (٢): أن الطرق المبتدعة إما أن تكون مخطرة لطولها ودقتها، وإما أن تكون فاسدة، ولكن من سلك الطريق المخوفة، وكانت طريقة صحيحة، فإنه يرجى له الوصول إلى المطلوب. ولكن لما فعل هؤلاء ما فعلوا، وصاروا يعارضون بمضمون طرقهم صحيح المنقول وصريح المعقول، و يدعون أن لا معرفة إلا من طريقهم، وأن لا يكون عالماً كاملاً، إلا من عرف طريقهم ــ احتيج إلى تبيين ما فيها دفعاً لمن يحارب الله ورسوله و يسعى في الأرض فساداً، و بياناً للطرق النافعة غير طريقهم، و بياناً لأن أهل العلم والإيمان عالمون بحقائق ما عندهم ليسوا عاجزين عن ذلك، فإن الهدي الذي بعث الله به رسوله لما كان فيه معنى الماء الذي يحصل به الحياة، ومعنى النور الذي يحصل به الأشراق ذكر هذين المثلين كما قال تعالى: ﴿أو مَن كان ميتاً فأحييناه، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مَثَله في الظلمات، ليس بخارج منها﴾. (٣)

(ص ٩٠) وقد كنّا صنّفنا في فساد هذا الكلام مصنفاً قديماً من نحو ثلاثين

---

(١) ملخص من الكتاب المسمى: «بيان موافقة صريح المعقول، لصحيح المنقول» المطبوع بالمطبعة الاميرية بمصر سنة ١٣٢١ هـ على هامش كتاب «منهاج السنة النبوية» لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ج ١، ص ١٥٤). هو: «درء تعارض العقل».

(٢) ص ١٤٤ طبعت هامش «منهاج السنة» وطبعت رشاد سالم.

(٣) سورة الانعام، الآية: ١٢٢.

سنة، وذكرنا طرفاً من بيان فساده في الكلام على المحصل [١] وفي غير ذلك، فذاك كلام في تقرير الأدلة السمعية، وبيان أنها قد تفيد اليقين والقطع.

وفي هذا الكتاب كلام في بيان انتفاء المعارض العقلي، وإبطال قول من زعم تقديم الأدلة العقلية مطلقاً.

الدليلان القطعيان لا يتعارضان

(ص ٤٢): الدليلان القطعيان لا يتعارضان أصلاً، سواء أكانا سمعيين أم عقليين، أو كان أحدهما سمعياً والآخر عقلياً، ويقدم القطعي على الظني منهما. وقد قدم المؤولون والمعطلون العقلي على السمعي بدعوى أنه الأصل.

وقد أبطل شيخ الإسلام ذلك كما سيأتي بيانه، وإذا قدر أنه لم يتعارض قطعي وظني لم ينازع عاقل في تقديم القطعي، لكن كون السمعي لا يكون قطعياً دونه خرط القتاد. وأيضاً فإن الناس متفقون على أن كثيراً مما جاء به الرسول معلوم بالاضطرار من دينه كإيجاب العبادات، وتحريم الفواحش والظلم، وتوحيد الصانع وإثبات المعاد، وغير ذلك. فتبين أن كل ما قام عليه دليل قطعي سمعي، يمتنع أن يعارضه قطعي عقلي.

أصول الدين ومسائل الاعتقاد

(ص ١٣) إن أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها، ويجب أن تذكر قولاً أو تعمل عملاً، كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد، أو دلائل هذه المسائل. أما القسم الأول فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر. وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه، والحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ مشتملة على ذلك على غاية المراد، وتمام الواجب والمستحب. والرسل عليهم الصلاة والسلام بُعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بافسادها وتغييرها، قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر

---

(١) هو للفخر الرازي «المتوفى سنة ٦٠٦ هـ».

الناس عليها﴾.(١)

والغرض: التنبيه على أن في القرآن والحكمة النبوية عامة أصول الدين. ومن المسائل والدلائل ما يستحق أن يكون أصول الدين، وأما ما يدخله بعض الناس في هذا المسمى من الباطل فليس ذلك من أصول الدين.

مثل: نفي الصفات والقدر ونحو ذلك، وقد اعترف حُذّاق أهل الكلام كالأشعري(٢) وغيره أنها ليست طريقة الرسل وأتباعهم، ولا سلف الأمة وأئمتها، وذكروا أنها محرّمة عندهم، بل المحققون على أنها طريقة باطلة. وثبوت الرسالة في نفسها، وثبوت صدق الرسول، وثبوت ما أخبر به في نفس الأمر، ليس موقوفاً على وجودنا فضلاً عن أن يكون موقوفاً على عقولنا، أو على الأدلة التي نعلمها بعقولنا، كما أن وجود الرب تعالى وما يستحقه من الأسماء ثابت في نفس الأمر، سواء علمناه أو لم نعلمه. ومعلوم أن السمعيات مملوءة من إثبات الصانع وقدرته وتصديق رسوله، ليس فيها ما يناقض هذه الأصول العقلية التي بها يعلم السمع، بل الذي في السمع يوافق هذه الأصول، بل السمع فيه من بيان الأدلة العقلية على إثبات الصانع ودلائل ربوبيته وقدرته، وبيان آيات الرسول ودلائل صدقه أضعاف ما يوجد في كلام النظار، فليس فيه ولله الحمد ما يناقض الأدلة العقلية التي بها يعلم صدق الرسول.

فتبين بذلك أن العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه، ولا معطياً له صفة لم تكن له، ولا مفيداً له صفة كمال.

من خالف صحيح المنقول فقد خالف صريح المعقول

إنّ كل من أثبت ما أثبته الرسول، ونفى ما نفاه كان أولى بالمعقول الصريح،

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) كان أبو الحسن الأشعري ـــ علي بن إسماعيل ـــ أولا معتزلياً، ثم تاب في القول بخلق القرآن، ووجوب الأصلح على الله، وأنه تعالى لا يُرى بالأبصار في دار القرار وهو إمام الأشاعرة، ومولده بالبصرة، وتوفي ببغداد «سنة ٣٢٤ هـ ـــ ٩٣٦ م» ـــ البيطار ـــ.

أقول: ومع أن الأشاعرة ينتسبون إليه، فانهم خالفوه في الكثير من المسائل التي استقر رأيه عليها بعد أن ترك الاعتزال، وانظر كتابه «الابانة» وهو آخر كتبه ـــ رحمه الله ـــ. ـــ زهير ـــ

كما كان أولى بالمنقول الصحيح، وإن من خالف صحيح المنقول، فقد خالف أيضاً صريح المعقول، وكان أولى بمن قال الله فيه: ﴿وقالوا لوكنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير﴾.[1]

أنزل القرآن بلغة العرب، لا بلسان الاصطلاح

(ص ٦٣) أرسل الله الرسول بلسان قومه، وهم قريش خاصة، ثم العرب عامة، لم ينزل القرآن بلغة من قال: الأجسام متماثلة، حتى يحمل القرآن على لغة هؤلاء، هذا لو كان ما قالوه صحيحاً في العقل، فكيف وهو باطل في العقل؟.

(ص ١٩٤) والقرآن نزل بلغة الذين خاطبهم الرسول ﷺ ، فليس لأحد أن يستعمل ألفاظه في معان بنوع من التشبيه والاستعارة، ثم يحمل كلام من تقدمه على هذا الوضع الذي أحدثه هو.

ما المراد بالعالم

(ص ٦٨) المراد بالعالم في الاصطلاح هو كل ما سوى الله، فإن هذه العبارة لها معنى في الظاهر المعروف عند عامة الناس أهل الملل وغيرهم، ولها معنى في عرف المتكلمين، وقد أحدث الملاحدة لها معنى ثالثاً.

(فالمعنى الأول): أن الله وحده القديم الأزلي، وهذا المعنى هو المعروف عن الأنبياء وأتباع الأنبياء.

(والمعنى الثاني): أن يقال: لم يزل الله لا يفعل شيئاً، ولا يتكلم بمشيئته، ثم حدثت الحوادث من غير سبب يقتضي ذلك مثل أن يقال: أن كونه لم يزل متكلماً أو فاعلاً بمشيئته، بل لم يزل قادراً (هو ممتنع) وانه يمتنع وجود حوادث لا أول لها، فهذا المعنى هو الذي يعنيه أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم بحدوث العالم، وقد يحكونه عن أهل الملل، وهو بهذا المعنى لا يوجد في القرآن، ولا غيره من كتب الأنبياء.

(والمعنى الثالث) الذي أحدثه الملاحدة كابن سينا (٤٢٨ هـ) وأمثاله، قالوا:

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٠.

نقول: العالم مُحدَث، أي: معلول لعلة قديمة أزلية، أوجبته فلم يزل معها، وسمّوا هذا: الحدوث الذاتي، وغيره: الحدوث الزمني. والتعبير بلفظ الحدوث، عن هذا المعنى لا يعرف عن أحد من أهل اللغات لا العرب ولا غيرهم، إلا من هؤلاء الذين ابتدعوا لهذا اللفظ هذا المعنى. والقول: بأن العالم مُحدَث بهذا المعنى فقط، ليس قول أحد من الأنبياء ولا أتباعهم، ولا أمة من الأمم العظيمة، ولا طائفة من الطوائف المشهورة.

(ص ٧١) وإن قال الملحد: بل هذا العالم المشهود قديم، واجب بنفسه غنيّ عن الصانع.

فقد أثبت واجباً بنفسه قديماً أزلياً هو جسم حامل الأعراض، متحيز في الجهات، تقوم به الأكوان وتحله الحوادث والحركات، وله أبعاض وأجزاء، فكان ما فرّ منه من إثبات جسم قديم قد لزمه مثله وما هو أبعد منه، ولم يستفد بذلك الإنكار إلا جحد الخالق، وتكذيب رسله، ومخالفة صريح المعقول، والضلال المبين.

حدوث العالم

(ص ٧٣) إن مسألة حدوث العالم اعترف بها أكابر النظّار من المسلمين وغير المسلمين، حتى إن موسى بن ميمون (أبو عمران) صاحب (دلالة الحائرين)[١] ــ وهو في اليهود كأبي حامد الغزلي[٢] في المسلمين ــ يمزج الأقوال النبوية بالأقوال الفلسفية ويتأولها عليها، حتى الرازي وغيره من أعيان النظّار اعترفوا: بأن العلم بحدوث العالم لا يتوقف على الأدلة العقلية، بل يمكن معرفة صدق الرسول قبل العلم بهذه المسألة.

قيام الصفات بالموصوفات

(ص ١٧٨) المعقول: هو قيام الصفات بالموصوفات، والأعراض بالجواهر،

(١) المتوفى سنة ٦٠١ هـ ــ ١٢٠٤ م.

(٢) هو محمد بن محمد العالم الكبير المتوفى سنة ٥٠٦ هـ.

كالصورة الصناعية مثل صورة الخاتم والدرهم والسرير والثوب، فإنه عرض قائم بجوهر هو الفضة والخشب والغزل، وكذلك الاتصال والانفصال قائمان بمحل هو الجسم.

(ص ١٤) وليست الصفات خارجة عن مسمى الموصوف، ولا زائدة على ذلك، بل هي داخلة في مسمى اسمه، وكلام المتكلم ليس بائن عنه.

(ص ٢٠) وأما الصفات الملازمة للموصوف في الخارج فكلها لازمة له، لا تقوم ذاته مع عدم شيء عنها.

(ص ١٧٨) والخالق تعالى أولى أن تكون حقيقته هي وجوده الثابت الذي لا يشركه فيه أحد، وهو نفس ماهيته التي هي حقيقته الثابتة في نفس الأمر، ولو قدر أن الوجود المشترك بين الواجب والممكن موجود فيهما في الخارج، وأن الحيوانية المشتركة هي بعينها في الناطق والأعجم، كان يميز أحدهما عن الآخر بوجود خاص، كما يتميز الإنسان بحيوانية تخصه، كما أن السواد والبياض إذا اشتركا في مسمى اللون يتميز أحدهما بلونه الخاص عن الآخر.

الموجود بنفسه والموجود بغيره

(ص ١٩٦) فالله تعالى هو الموجود الواجب بنفسه، خالق لكل ما سواه، وأما الهيئة الاجتماعية إن قدّر لها وجود في الخارج فهي حاصلة به أيضاً سبحانه وتعالى، وأما المجموع الذي كل منهم مفتقر إلى من يبدعه، وليس فيه موجود بنفسه، فيمتنع أن يكون فاعلهم واحداً منهم، لأنه لا بد له من فاعل، ولو كان فاعلهم لكان فاعل نفسه وغيره من الممكنات.

كل موجود فاما موجود بنفسه وإما موجود بغيره، والموجود بغيره لا يوجد إلا بالموجود بنفسه، ثبت وجود الموجود بنفسه، وإذا سمي هذا: واجباً. وهذا: ممكناً، كان ذلك أمراً لفظياً.

الذات مستلزمة للصفات

وأكثر العقلاء من طوائف المسلمين وغيرهم ينكرون الجوهر الفرد، حتى

الطوائف الكبار من أهل الكلام، وأئمة أهل السنة والحديث من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم يثبتون الصفات الخبرية، هناك ذات موصوفة بصفات لازمة له، فإذا قال القائل: كل موصوف بصفات لازمة له يفتقر إلى مركّب ومؤلف، يجمع بين الذات والصفات كان قوله باطلاً، وان هنا ذاتاً موصوفة بصفات، ولا دليل لك على أن الذات القديمة الواجبة المستلزمة لصفات مفتقرة إلى من يركّب صفاتها فيها، فقد علمتم أنه ليس المراد بالمركّب إلا اتصاف الذات بصفات لازمة لها، أو وجود معان فيها، أو اجتماع معان وأمور ونحو ذلك، ليس المراد أن هناك مركباً ركبه غيره، حتى يقال: ان المركّب يحتاج إلى مركّب، بل إن الذات، إن أريد بها الذات، الموجودة في الخارج فتلك مستلزمة لصفاتها، يمنع وجودها بدون تلك الصفات.

موافقة المعقولات للسمعيات

(ص ٢١٤) إن هذه المعقولات التي اضطرب فيها أكابر النظار، وهي عندهم أصول العلم الإلهي، إذا حققت غاية التحقيق تبين أنها موافقة لما قاله أئمة السنة والحديث العارفون بما جاءت به الرسل، وتبين أن خلاصة المعقول خادمة ومعينة وشاهدة لما جاء به الرسول ﷺ . ونحن ــ ولله الحمد ــ قد بينا الجواب عن جميع حجج الفلاسفة في غير هذا الموضع، وبسطنا الحجج في ذلك.

(ص ٢١٧) وهذا مما تبين به أنه ليس في العقل الصريح ما يخالف النصوص الثابتة عن الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم وهو المقصود، والذين يُعارضون الكتاب والسنة بما يزعمون أنه من العقليات القاطعة، إنما يعارضونه بمثل هذه الحجج الداحِضَة، فكل من لم يناظر أهل الالحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفى بواجب العلم، والإيمان، وكل من جحد القضايا الضرورية المستقرة في عقول بني آدم التي لم ينقلها بعضهم عن بعض كان سوفسطائياً.[1]

---

(١) السوفسطائية انكروا كلاً من الحسيات والبديهيات فقالوا بعدم الجزم في كل منها، و«سوفا» معناه: العلم والحكمة، و«أسطا» معناه المزخرف والغلط، ومنه اشتقت السفسطة، كما اشتقت الفلسفة من فيلاسوف: أي محب الحكمة.

المعقول مطابق لما جاء به الرسول

(ص ٢٣٢) وهؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنة الذين ذمهم السلف والأئمة، لا قاموا بكمال الايمان، ولا بكمال الجهاد، بل أخذوا يناظرون أقواماً من الكفار وأهل البدع الذين هم أبعد عن السنة منهم بطريق لا يتم إلا برد بعض ما جاء به الرسول وهي لا تقطع أولئك الكفار بالمعقول، فلا آمنوا بما جاء به الرسول حق الإيمان، ولا جاهدوا الكفار حق الجهاد.

(ص ٢٣٢) وتبين أن المعقول الصريح مطابق لما جاء به الرسول لا يناقضه ولا يعارضه، وأنه بذلك تبطل حجج الملاحدة، وينقطع الكفار، فتحصل مطابقة العقل للسمع، وانتصار أهل العلم والإيمان، على أهل الضلال والالحاد.

وقد كنت قديماً ذكرت في بعض كلامي أني تدبرت عامة ما يحتج به النفاة من النصوص فوجدتها على نقيض قولهم أدلّ منها على قولهم كاحتجاجهم على نفي الرؤية بقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾[(١)] فبينت أن الإدراك هو الإحاطة لا الرؤية، وأن هذه الآية تدل على إثبات الرؤية أعظم من دلالتها على نفيها.

إثبات الصانع وإحداثه للمحدثات لا يمكن إلا باثبات صفاته وأفعاله

وإذا تدبر العاقل الفاضل تبيّن له أن إثبات الصانع وإحداثه للمحدثات، لا يمكن إلا بإثبات صفاته وأفعاله، ولا تنقطع الدهرية[(٢)] من الفلاسفة وغيرهم قطعاً باتاً عقلياً لا صلة فيه إلا على طريقة السلف أهل الاثبات، للأسماء والأفعال والصفات.

ففحول أهل الكلام كأبي علي[(٣)] وأبي هاشم[(٤)] والقاضي عبد الجبار[(٥)] وأبي

---

(١) سورة الانعام، الآية: ١٠٣.

(٢) الدهرية: هم المنكرون للبعث والمعاد، القائلون: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي إلا مر الليالي والأيام.

(٣) المتوفى سنة ٣٠٣ هـ.

(٤) المتوفى سنة ٣٢١ هـ.

(٥) المتوفى سنة ٤٥١ هـ.

الحسن الأشعري[١] والقاضي أبي بكر[٢] وأبي الحسين البصري[٣] ومحمد بن الهيضم[٤] وأبي المعالي الجويني[٥] وأبي الوفاء ابن عقيل[٦] وأبي حامد الغزالي [٧] وغيرهم.

يبطلون طرق الفلاسفة التي بنوا عليها النفي، منهم من يبطل أصولهم المنطقية، وتقسيمهم الصفات إلى ذاتي وعرضي وتقسيمهم العرضي إلى لازم للماهية وعارض لها، ودعواهم أن الصفات اللازمة للموصوف منها، ما هو ذاتي داخل في الماهية، ومنها ما هو عرضي خارج عن الماهية، وبناءهم توحيد واجب الوجود الذي مضمونه نفي الصفات على هذه الأصول.

(ص ٢٥٩) وبعض حذاق المعتزلة نصر القول بعلو الله ومباينته لخلقه بالأدلة العقلية، وأظنه من أصحاب أبي الحسين، وقد حكى ابن رشد [٨] ذلك عن أئمة الفلاسفة. وأبو البركات وغيره من الفلاسفة يختارون قيام الحوادث به كإرادات وعلوم متعاقبة، وقد ذكروا ذلك وما هو أبلغ منه عن متقدمي الفلاسفة كما ذكرت أقوالهم.

(ج ٣ ص ٦٨) إن الاستدلال بحدوث المحدثات على إثبات الصانع، هي طريقة فطرية ضرورية، وهي خيار ما عندهم، بل ليس عندهم طريقة صحيحة غيرها، لكنهم أدخلوا فيها من الاختلال والفساد، ما يعرفه أهل التحقيق والانتقاد، الذين آتاهم الله الهدى والسداد.

تكليم الله تعالى لعباده

الناس متنازعون في تكليم الله لعباده، هل هو مجرد إدراك لهم من غير تجدد تكليم من جهته، أم لا بد من تجديد تكليم من جهته؟ على قولين للمنتسبين إلى السنة وغيرهم من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم.

---

(١) المتوفى سنة ٣٢٣ هـ.
(٢) المتوفى سنة ٤٠٣ هـ.
(٣) المتوفى سنة ٤٣٦ هـ.
(٤) المتوفى سنة ٤٦٥.
(٥) المتوفى سنة ٤٧٨ هـ.
(٦) المتوفى سنة ٥١٥ هـ.
(٧) المتوفى سنة ٥٠٦ هـ.
(٨) المتوفى سنة ٥٩٥ هـ.

فالأول: قول الكُلاَّبية [1] والسالمية ومن وافقهم من أصحاب هؤلاء الأئمة القائلين بأن الكلام لا يتعلق بمشيئته وقدرته، بل هو بمنزلة الحياة.

والثاني قول الأكثرين من أهل الحديث والسنة، من أصحاب هؤلاء الأئمة، وغيرهم وهو قول أكثر أهل الكلام من المرجئة [2] والكرامية [3] والمعتزلة وغيرهم، قالوا: ونصوص الكتاب والسنة تدل على هذا القول، ولهذا فرّق الله بين إيحائه وتكليمه كما ذكر في سورة النساء وسورة الشورى، والأحاديث التي جاءت بأنه يكلم عباده يوم القيامة ويحاسبهم.

الحوادث والمتجددات

(ج ٤ ص ١٧) ذكر (أي الآمدي) [4] أن لفظ الحادث مرادهم به الموجود بعد العدم، سواء أكان قائماً بنفسه كالجوهر، أو صفة لغيرهم كالأعراض، وسمي ما ليس بموجود كالأحوال والسلوب والإضافات (متجددات) وهذا الفرق أمر اصطلاحي، وإلا فلا فرق بين معنى المتجدد ومعنى الحادث.

(ص ١٨) وأما المذاهب فيقال: لفظ الحوادث والمتجددات في لغة العرب يتناول أشياء كثيرة، وربما أفهم أو أوهم في العرف استحالات كالأمراض والغموم والأحزان ونحوها، إذا قيل: فلان حدث به حادث، وكثير منهم يعبر بالأحداث عن المعاصي والذنوب ونحو ذلك.

صدورها عمن لا فعل له ولا صفة محال

(ص ١٠) فقولكم ــ (أي الفلاسفة والدهرية) ــ بصدور الحوادث المختلفة الدائمة عمن لا فعل له ولا صفة ولا يحدث منه شيء أعظم فساداً من قول من

(١) قال ابن كلاب ومن وافقه: كلامه تعالى صفة ذات، لازم لذاته كلزوم الحياة، ليس هو متعلقاً بمشيئته وقدرته، بل هو قديم كقدم الحياة.

(٢) لقبوا بالمرجئة لأنهم يرجئون العمل عن النية والاعتقاد، أي يؤخرون، أو لأنهم يقولون، لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

(٣) تنسب الفرقة الكرامية إلى محمد بن كرام (كجمال) وقد نسب إليه أنه كان يقول: إن الإيمان قول بلا عمل (مات سنة ٢٥٥ هـ). [وكان في الفقه على مذهب الامام أبي حنيفة. ولم يقلده في عقيدته السلفية].

(٤) المتوفى سنة ٦٣١ هـ.

يقول: إنه تارة تصدر منه الحوادث، وتارة لا تصدر، فانه إن كان صدور الحوادث عنه من غير حدوث شيء فيه محالاً، فصدورها دائماً عنه من غير حدوث شيء فيه أشد استحالة.

نفاة الصفات لا مستند لهم

(ج ٤ ص ١٨) ومن المعلوم أنه لا يمكن أصلاً أن ينقل عن محمد ﷺ ولا عن إخوانه المرسلين كموسى وعيسى صلوات الله عليهما ما يدل على قول النفاة لا نصاً ولا ظاهراً، بل الكتب الإلهية المتواترة عنهم، والأحاديث المتواترة عنهم تدل على نقيض قول النفاة، وتوافق قول أهل الاثبات، وكذلك أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان، وأئمة المسلمين أرباب المذاهب المشهورة، وشيوخ المسلمين المتقدمون، لا يمكن لأحد أن ينقل نقلاً صحيحاً عن أحد منهم بما يوافق قول النفاة، بل المنقول المستفيض عنهم يوافق قول أهل الاثبات، فنقل مثل هذا عن أهل الملة خطأ ظاهر، ولكن أهل الكلام والنظر من أهل الملة، تنازعوا في هذا الأصل لما حدث في أهل الملة مذهب الجهمية نفاة الصفات، وذلك بعد المائة الأولى في أواخر عصر التابعين، ولم يكن قبل هذا يعرف من أهل الملة من يقول ينفي الصفات، ولا بنفي الأمور الاختيارية القائمة بذاته تعالى.

(ص ٦٥) وحقيقة هؤلاء الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم، أن الرب لم يزل معطلاً، لا يفعل شيئاً ولا يتكلم بمشيئته وقدرته، ثم إنه أبدع جواهر من غير فعل يقوم به، وبعد ذلك ما بقي يخلق شيئاً، بل إنما تحدث صفات تقوم بها، ويدعون أن هذا قول أهل الملل الأنبياء وأتباعهم!!

اضطرابهم في مسمى واجب الوجود

(ص ١٨٧) واعلم أن هؤلاء غلطوا في مسمى: واجب الوجود، وفيما يقتضيه الدليل من ذلك حتى صاروا في طرفي نقيض، فتارة يثبتونه ويجردونه عن الصفات حتى يجعلوه وجوداً مطلقاً، ثم يقولون: هو الوجود الذي في الموجودات، فيجعلون وجود كل ممكن وحادث هو الوجود الواجب بنفسه، كما يفعل ذلك محقق صوفيتهم

كابن عربي[1]، وابن سبعين[2]، والقونوي[3]، والتلمساني[4] وأمثالهم، وتارة يشككون في نفس الوجود الواجب، و يقدرون أن يكون كل موجود ممكناً بنفسه، لا فاعل له، وأن مجموع الوجود ليس فيه واجب بنفسه، بل هذا معلول مفعول، وهذا معلول مفعول، وليس في الوجود إلا ما هو معلول مفعول، فلا يكون في الوجود ما هو فاعل مستغن عن غيره، فتارة يجعلون كل موجود واجباً بنفسه، وتارة يجعلون كل موجود ممكناً بنفسه، ومعلوم بضرورة العقل بطلان كل من القسمين وان من الموجودات ما هو حادث، كان تارة موجوداً وتارة معدوماً، وهذا لا يكون واجباً بنفسه، وهذا لا بد له من موجود واجب بنفسه.. وأن يكون ما دخل في مسمى نفسه من صفاته لازماً له، فاتصافه بصفاته سواء سمي ذلك تركيباً أو لم يسم، لا يمنعه أن يكون واجباً بنفسه لا يفتقر إلى أمر خارج عنه، ولهذا كانت صفاته واجبة الوجود بهذا الاعتبار، وإن لزم من ذلك تعدد واجب الوجود بهذا المعنى، بخلاف ما اذا عُني به أنه الموجود الفاعل للممكنات، فان هذا واحد سبحانه لا شريك له.

(ص ٢٤٨) والمسلمون متفقون على أن الله سبحانه وتعالى، وصفاته اللازمة لذاته، لا يجوز عليها العدم.

(ص ١٩٤) وعامة ما يلبس به هؤلاء النفاة ألفاظ مجملة متشابهة، إذا فسرت معانيها، وفُصِل بين ما هو حق منها، و بين ما هو باطل، زالت الشبهة وتبين أن الحق الذي لا محيد عنه، هو قول أهل الاثبات للمعاني والصفات.

إن من شك في أوضح الأمرين وأبينها في العقل، وفي أمر لم يشكّ أحد من الأولين والآخرين فيه، كان أولى بالجهل ممن قال ما قالت به الأنبياء والرسل وأتباعهم وسائر عقلاء بني آدم من الأولين والآخرين، وعُلم ثبوته بالبراهين اليقينية، وذلك أنه لم يجوز أحد من بني آدم، وجود فاعل للعالم، ولذلك الفاعل فاعل، إلى ما لا نهاية له من غير أن يكون هناك فاعل موجود ـه، فمن شك في جواز هذا، أو عجز عن جواب شبهة مجوزه، كان جهله بيناً، وكان أجهلَ من

---

(١) المتوفى سنة ٦٣٨ هـ.

(٢) المتوفى سنة ٦٦٨ هـ.

(٣) المتوفى سنة ٧٢٩ هـ.

(٤) المتوفى سنة ٦٩٠ هـ.

أفحش الناس قولاً بالباطل المحض من التشبيه والتجسيم.

لا يؤخذ بلفظ مجمل مشتبه حتى يتبين معناه، ويعلم المقصود منه

(ص ١٧٩) هؤلاء عمدوا إلى ألفاظ مجملة مشتبهة تحتمل في لغات الأمم معاني متعددة، وصاروا يدخلون فيها من المعاني ما ليس هو المفهوم منها في لغات الأمم، ثم ركَّبوها وألفوها تأليفاً طويلاً بَنوا بعضه على بعض وعظّموا قولهم وهوّلوه في نفوس مَن لم يفهمه، ولا ريب أن فيه دقةً وغموضاً لما فيه من الألفاظ المشتركة، والمعاني المشتبهة.

ولهذا يجب على من يريد كشف ضلال هؤلاء وأمثالهم أن لا يوافقهم على لفظ مجمل حتى يتبين معناه ويعرف مقصوده، ويكون الكلام في المعاني العقلية المبيّنة، لا في معانٍ مشتبهة، بألفاظ مجملة.

(ص ١٨٠) وما تنازع فيه الأمة من الألفاظ المجملة كلفظ المتحيّز، والجهة، والجسم، والجوهر، والعرض، وأمثال ذلك، فليس على أحد أن يقبل مسمى اسم من هذه الأسماء، لا في النفي ولا في الاثبات، حتى يتبين له معناه.

فلسفة المعتزلة والجهمية في نفي الصفات والأفعال

(ص ١٨٧) إن المعتزلة والجهمية نفت أن يقوم بالله تعالى صفات وأفعال بناءاً على هذه الحجة، قالوا: لأن الصفات والأفعال لا تقوم إلا بجسم، وبذلك استدلوا على حدوث الجسم... فصاروا ينفون ما ينفونه من صفات الله تعالى، لأن إثبات ذلك يقتضي أن يكون الموصوف جسماً، وذلك ممتنع، لأن الدليل على إثبات الصانع، إنما هو حدوث الأجسام، فلو كان جسماً لبطل دليل إثبات الصانع.

وقالت المعتزلة كأبي الحسين وغيره أيضاً: إن صدق الرسول معلوم بالمعجزة، والمعجزة معلومة بكون الله تعالى لا يظهرها على يد كاذب... وغناه معلوم بكونه ليس بجسم، وكونه ليس بجسم معلوم بنفي الصفات، فلو قامت به الصفات لكان جسماً، ولو كان جسماً لم يكن غنياً، وإذا لم يكن غنياً لم يمتنع عليه فعل القبيح، فلا يؤمن أن يظهر المعجزة على يد كذاب، فلا يبقى لنا طريق إلى العلم بصدق

الرسول، فهذا الكلام ونحوه أصل دين المعتزلة.

(ص ١٨٩) وجمهور العقلاء، وأهل العلم من الفقهاء وغيرهم متفقون على بطلان قولهم، وإن الله تعالى يحدث الأعيان و يبدعها، وإن كان يحيل الجسم الأول إلى جسم آخر، فلا يقولون: إن جرم النطفة باق في بدن الإنسان، ولا جرم النواة باق في النخلة، والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع، والمقصود هنا أن هذه القواطع العقلية، هي التي يعارضون بها الكتب الإلهية، والنصوص النبوية، وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها، فيقال لهم: أنتم وكل مسلم عالم، تعلمون بالاضطرار أن إيمان السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، لم يكن مبنياً على هذه الحجج المبنيَّة على الجسم، ولا أمر النبي أحداً أن يستدل بذلك على إثبات الصانع، ولا ذكر الله تعالى في كتابه وفي آياته الدالة عليه وعلى وحدانيته شيئاً من هذه الحجج المبنية على الجسم والعرض، وتركيب الجسم وحدوثه، وما يتبع ذلك، فمن قال: إن الإيمان برسوله لا يحصل إلا بهذا الطريق، كان قوله معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام.

وأما السلف والأئمة، فينكرون صحتها في نفسها و بعيوبها لاشتمالها على كلام باطل، ولذا تكلموا في ذم مثل هذا الكلام، لأنه باطل في نفسه لا يوصل إلى حق بل إلى باطل... وان تقديم الشرع المعارض لها لا يكون قدحاً في العقليات التي هي أصل الشرع، بل يكون قدحاً في أمور لا يفتقر الشرع إليها، ولا يتوقف عليها وهو المطلوب.

أول من أظهر هذا النفي في الإسلام

وأول من أظهر هذا النفي في الإسلام الجعَد بن درهم معلم مروان بن محمد [١]، قال الإمام أحمد: وكان يقال: إنه من أهل خراسان، وعنه أخذ الجهم بن صفوان مذهب نفاة الصفات، وكان بحرّان هؤلاء النفاة الصابئة الفلاسفة أهل هذا الدين أهل الشرك ونفي الصفات والأفعال، ولهم مصنفات في دعوة الكواكب، كما صنفه ثابت بن قرة [٢] وأمثاله من الصابئة الفلاسفة أهل حرّان، وكما صنفه أبو معشر [٣] الفلكي وأمثاله، وكان لهم بها هيكل العلة الأولى، وهيكل العقل

(١) المتوفى سنة ١٣٢ هـ.

(٢) المتوفى سنة ٢٨٨ هـ.

(٣) المتوفى سنة ٢٧٢ هـ.

الفعال، وهيكل النفس الكلية، وهيكل زحل، وهيكل المشتري، وهيكل المريخ، وهيكل الشمس، وهيكل الزهرة، وهيكل عطارد، وهيكل القمر.

فالعقول عندهم عشرة، والنفوس تسع بعدد الأفلاك.

نفي الجبر وإثبات القدَر

(ج ١ ص ٣٥) عن بقية بن الوليد [١] قال: سألت الزُّبَيدي [٢] والأوزاعي [٣] عن الجبر، فقال الزبيدي: أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل، ولكن يقضي و يقدر، ويخلق ويجبل عبده على ما أحب.

وقال الأوزاعي: ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن، ولا السنة، فأهاب أن أقول ذلك، ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل، فهذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فهذان الجوابان أحسن الأجوبة. أما الزبيدي محمد بن الوليد صاحب الزهري فانه قال: أمر الله أعظم، و يريدون بعضلها ــ أي النفس ــ منعها مما ترضاه، وأما الأوزاعي، فانه منع من اطلاق هذا اللفظ حيث لم يكن له أصل في الكتاب والسنة فيُفضي إلى إطلاق لفظ مبتدع ظاهر في إرادة الباطل.

(ص ٣٦) قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس «إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة، فقال: أخُلُقين تخلقتُ بها أم خُلُقين جُبلت عليها؟ فقال: بل خُلُقين جبلتَ عليها، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خُلقين يحبهما الله» رواه مسلم [٤].

(ص ٣٩) وبذلك يتبين أن الشارع عليه السلام نص على كل مايعصم من المهالك نصاً قاطعاً للعذر، وقال تعالى: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم،

---

(١) المتوفى سنة ١٩٧ هـ.

(٢) المتوفى سنة ١٤٩ هـ.

(٣) المتوفى سنة ١٥٧ هـ.

(٤) لم يخرجه مسلم بطوله، وإنما هو فيه (١٨) إلى قوله «والأناة» وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» ٤٢/٢ من حديث الأشج قال: قال لي النبي صلى الله عليه «إن فيك لخلقين يحبهما الله» قلت: وما هما يا رسول الله؟ قال: الحلم والحياء، قلت: قديماً كان أو حديثاً؟ قال: قديماً، قلت: الحمد لله الذي جبلني على خلقين أحبها الله، ورجاله ثقات، وله شواهد تقويه انظرها في «مجمع الزوائد» ٣٨٨/٩، ٣٩٩٠ وغيره. وفي «صحيح الجامع الصغير ٢١٣٦» يراجع.

حتى يبين لهم ما يتقون﴾[1].

الإسلام يجمع الفِرَق ويعمُّها

(ص ٥٠) قال الشيخ أبو الحسن الأشعري في أول «مقالات اختلاف الإسلاميين»: اختلف المسلمون بعد نبيهم في أشياء ضلل فيها بعضهم بعضاً، وتبرأ بعضهم من بعض، إلا أن الإسلام يجمعهم فيعمهم، فهذا مذهبه وعليه أكثر الأصحاب.

وأما الفقهاء، فقد نقل عن الشافعي رضي الله عنه قال: لا أرد شهادة أهل الأهواء إلا الخطّابية،[2] فانهم يعتقدون حل الكذب. وأما أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه، فقد حكى الحاكم صاحب «المختصر» في كتاب «المنتقى» عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه لم يكفر أحداً من أهل القبلة... والذي نختاره أن لا نكفر أحداً من أهل القبلة.

(ج ٢ ص ٥٢) ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على مَن عَرَفَ أحوالهم، وتكلم فيهم بصدق وعدل وإنصاف.

وصف القرآن الكريم في الحديث النبوي

(ص ٢٩) روى الترمذي[3] وغيره عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون فِتَن»، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٥.

(٢) الخطابية: أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع، وهو الذي عزا نفسه إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق، فلما وقف الصادق على غلوه الباطل في حقه، تبرأ منه ولعنه وأخبر أصحابه بالبراءة منه، وشدد القول في ذلك... فلما اعتزل عنه، ادعى الأمر لنفسه. زعم أبو الخطاب أن الأئمة أنبياء ثم آلهة، وقال بإلهية جعفر بن محمد وإلهية آبائه انظر «الملل والنحل» للشهرستاني.

(٣) المتوفى سنة ٢٧٩ هـ.

بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومَن ابتغى الهُدى في غيره أضله الله، وهو حبلُ الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء... مَن قال به صُدّق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عَدل، ومن دعا إليه هُدِي إلى صراط مستقيم».

الترجمة التفسيرية للقرآن

ولذلك يترجم القرآن لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم، ويترجم بالعربية، كما أمر النبيُّ ﷺ زيدَ بن ثابت[1] أن يتعلّم كتاب اليهود ليقرأ له ويكتب له ذلك، حيث لم يأتمن اليهود عليه.

إثبات الارادة الأزلية والعلة الفاعلية والغائية

(ص ٢٠٣) الأشعرية أثبتوا السبب الفاعل لإرادة العبد، وأثبتوا لله إرادة قديمة تتناول جميع الحوادث، ولكن لم يثبتوا لها الحكمة المطلوبة والعاقبة المحمودة، فكان هؤلاء بمنزلة من أثبت العلة الفاعلية دون الغائية، وأولئك بمنزلة العلة الغائية دون الفاعلية، والمتفلسفة المشاؤون يدعون إثبات العلة الفاعلية والغائية، ويعللون ما في العالم من الحوادث بأسباب وحِكم... وحقيقة قولهم: ان أفعال الرب تعالى ليس فيها حكمة ولا عاقبة محمودة، لأنهم ينفون الإرادة، ويقولون ليس فاعلاً مختاراً.

حدوث ما يحدثه تعالى من المخلوقات تابع لأفعاله الاختيارية

(ج ٢ ص ٣) حدوث ما يحدثه الله تعالى من المخلوقات تابع لما يفعله من أفعاله الاختيارية القائمة بنفسه، وهذه سبب الحدوث والله تعالى حيٌّ قيوم، لم يزل موصوفاً بأنه يتكلم بما يشاء فعّال لما يشاء، وهذا قد قاله العلماء الأكابر من أهل السنة والحديث، ونقلوه عن السلف والأئمة، وهو قول طوائف كثيرة من أهل الكلام والفلسفة المتقدمين والمتأخرين، بل هو قول جمهور المتقدمين من الفلاسفة، وعلى هذا فيزول الإشكال، ويكون إثبات خلق السموات إنما يتمّ بما جاء به

---

(١) المتوفى سنة ٤٥ هـ.

الشرع ... وكل كمال وصف به المخلوق من غير استلزامه لنقص، فالخالق أَحَقُّ به، وكلُّ نقص نزَّه عنه المخلوق فالخالق أحق أن ينزّه عنه، والفعل صفة كمال لا صفة نقص، كالكلام والقدرة، وعدم الفعل صفة نقص كعدم الكلام وعدم القدرة، فدل العقل على صحة ما دل عليه الشرع وهو المطلوب.

ولما كان الإثبات هو المعروف عند أهل السنة والحديث كالبخاري[1] وأبي زرعة[2] وأبي حاتم[3] ومحمد بن يحيى الذهلي[4] وغيرهم من العلماء الذين أدركهم محمد بن إسحاق[5] وابن خزيمة[6]، كان المستقر عنده ما تلقاه عن أئمته من أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء، وإنه يتكلم بالكلام الواحد مرة بعد مرة.

الكشف عن مذهب المعتزلة وبيان حقيقته

(ص ٦) كانت المعتزلة تقول: إن الله مُنَزَّه عن الأعراض والأبعاض والحوادث والحدود. ومقصودهم نفيُ الصفات ونفيُ الأفعال، ونفيُ مباينته للخلق وعلوه على العرش، وكانوا يعبّرون عن مذاهب أهل الإثبات أهل السنة بالعبارات المجملة التي تشعر الناس بفساد المذهب، فإنهم إذا قالوا: إن الله منزه عن الأعراض، لم يكن في ظاهر هذه العبارة ما يُنكَر، لأن الناس يفهمون من ذلك: أنه منزه عن الاستحالة والفساد، كالأعراض التي تعرض لبني آدم من الأمراض والأسقام، ولا ريب أن الله منزَّه عن ذلك، ولكن مقصودهم: أنه ليس له علم ولا قدرة ولا حياة ولا كلام قائم به، ولا غير ذلك من الصفات التي يسمونها هم أعراضاً.

وكذلك إذا قالوا: إن الله منزّه عن الحدود والأحياز والجهات، أوهموا الناس أن مقصودهم بذلك: أنه لا تحصره المخلوقات، ولا تحوزه المصنوعات. وهذا المعنى صحيح، ومقصودهم: أنه ليس مبايناً للخلق ولا منفصلاً عنه، وأنه ليس فوق السماوات رب ولا على العرش إله، وأن محمداً لم يعرج به إليه، ولم ينزل منه شيء، ولا يصعد إليه شيء، ولا يتقرب إليه شيء، ولا يتقرب إلى شيء، ولا ترفع إليه الأيدي في الدعاء ولا غيره، ونحو ذلك من معاني الجهمية.

---

(١) المتوفى سنة ٢٥٦ هـ.
(٢) المتوفى سنة ٢٦٤ هـ.
(٣) المتوفى سنة ٢٧٧ هـ.
(٤) المتوفى سنة ٢٥٨ هـ.
(٥) المتوفى سنة ٣١٣ هـ.
(٦) المتوفى سنة ٣١١ هـ.

وإذا قالوا: إنه ليس بجسم أوهموا أنه ليس من جنس المخلوقات، ولا مثل أبدان الخلق، وهذا المعنى الصحيح. ولكن مقصودهم بذلك: أنه لا يرى ولا يتكلم بنفسه، ولا تقوم به صفة، ولا هو مباين للخلق وأمثال ذلك.

وإذا قالوا: لا تحله الحوادث أوهموا الناس أن مرادهم أنه لا يكون محلاً للتغيرات والاستحالات ونحو ذلك من الأحداث التي تحدث للمخلوقين فتحيلهم وتفسدهم، وهذا معنى صحيح. ولكن مقصودهم بذلك: أنه ليس له فعل اختياري يقوم بنفسه، ولا له كلام ولا فعل يقوم به يتعلق بمشيئته وقدرته، وأنه لا يقدر على استواء أو نزول أو إتيان، أو مجيء، وأن المخلوقات التي خلقها لم يكن منه عند خلقها فعل أصلاً، بل عين المخلوقات هي الفعل، ليس هناك فعل ومفعول، وخلق ومخلوق، بل المخلوق عين الخلق، والمفعول عين الفعل ونحو ذلك، وابن كُلاَّب ومن اتبعه وافقوهم على هذا، وخالفوهم في إثبات الصفات.

الإمام الأشعري يثبت الصفات بالشرع تارة وبالعقل أخرى

وكذلك الأشعري يثبت الصفات بالشرع تارة وبالعقل أخرى، ولهذا يثبت العلوّ ونحوه مما تنفيه المعتزلة، ويثبت الاستواء على العرش، ويرد على من تأوله بالاستيلاء ونحوه مما لا يختص بالعرش ــ أي هو تعالى مستول على كل شيء من مخلوقاته لا على العرش وحده، وهو العالي على كل شيء، المحيط بكل شيء في جميع أحواله من نزوله وارتفاعه، لا يحيط به شيء، ولا يحتوي عليه شيء.(١)

وكان الأشعري وأئمة أصحابه يقولون: انهم يحتجون بالعقل لما عرف ثبوته بالسمع، فالشرع هو الذي يعتمد عليه في أصول الدين، والعقل عاضد له معاون. لكن المعتزلة القائلين بأن دلالة السمع موقوفة على صحته، صرحوا بأنه لا يستدل بأقوال الرسول على ما يجب ويمتنع من الصفات بل ولا الأفعال، وصرحوا بأنه لا يجوز الاحتجاج على ذلك بالكتاب والسنة وإن وافق العقل، فكيف إذا خالفه.

وهذه الطريقة هي التي سلكها من وافق المعتزلة في ذلك.

---

(١) جمع الإمام الذهبي مسائل العلو وأحاديثها في كتابه القيم «العلو للعلي الغفار» وقد قام استاذنا الألباني باختصار صحيحه والتعليق عليه وهو من مطبوعات المكتب الإسلامي ــ الناشر ــ

وأما الأشعري وأئمة أصحابه فإنهم مثبتون لها (أي الصفات الخَبرية) يردون على من ينفيها، أو يقف فيها فضلاً عمن يتأولها.

وأمّا مسألة قيام الأفعال الاختيارية به، فإنَّ ابن كُلاَّب والأشعري وغيرهما ينفونها، وعلى ذلك بنوا قولهم في مسألة القرآن، وبسبب ذلك وغيره تكلم الناس فيهم في هذا الباب بما هو معروف في كتب أهل العلم ونسبوهم إلى البدعة، والصواب أن الله بجميع صفات ذاته واحد، لم يزل ولا يزال، وما أضيف إلى الله من صفات فعله مما هو غير بائن عن الله فغير مخلوق.

التفاسير المأثورة مثبتة للصفات

والتفاسير المأثورة عن النبي صلوات الله عليه والصحابة والتابعين مثل تفسير محمد بن جرير الطبري،[1] وتفسير عبد الرحمن بن إبراهيم المعروف بدُحَيْم،[2] وتفسير عبد الرحمن بن أبي حاتم،[3] وتفسير ابن المنذر،[4] وتفسير أبي بكر عبد العزيز[5]، وتفسير أبي الشيخ الأصبهاني[6]، وتفسير أبي بكر ابن مردويه[7]، وما قبل هؤلاء من التفاسير مثل تفسير أحمد بن حنبل[8]، وإسحاق بن إبراهيم[9] وبقي ابن مخلد[10] وغيرهم، ومن قبلهم مثل تفسير عبد بن حميد[11]، وتفسير عبد الرزاق[12]، ووكيع بن الجراح[13]، فيها من هذا الباب الموافق لقول المثبتين ما لا يكاد يحصى، وكذلك الكتب المصنفة في السنّة التي فيها آثار النبي ﷺ والصحابة والتابعين.

خلاصة ما تقدم

الردّ بعشرات الآيات على مَن يقول: إن الله تعالى لا يتكلم إلا بأصوات قديمة أزلية ليست متعاقبة وهو لا يقدر على التكلم بها، ولا له في ذلك مشيئة ولا فعل (٦٠-٦٣ ج ٢) وقد جاء في آخرها قوله: وأمثال ذلك كثير في كتاب الله تعالى،

---

(١) المتوفى سنة ٣١٠ هـ.
(٢) المتوفى سنة ٢٤٥ هـ.
(٣) المتوفى سنة ٣٢٧ هـ.
(٤) المتوفى سنة ٣٠٩ هـ.
(٥) المتوفى سنة
(٦) المتوفى سنة
(٧) المتوفى سنة
(٨) المتوفى سنة ٢٤١ هـ.
(٩) المتوفى سنة ٢٣٨ هـ.
(١٠) المتوفى سنة ٢٧٦ هـ.
(١١) المتوفى سنة
(١٢) المتوفى سنة ٢١١ هـ.
(١٣) المتوفى سنة ١٩٧ هـ.

بل يدخل في ذلك عامّة ما أخبر الله به من أفعاله لا سيما المرتبة كقوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾،[1] ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾،[2] ﴿ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين﴾،[3] وآيات كثيرة كلها تدل على أفعال الله تعالى بالتعاقب والترتيب.

(ص ٦٠) وخلاصة هذا المبحث الطويل الجليل هو في قوله: لكن المقصود هنا أن نبين أن القرآن والسنة فيهما من الدلالة على هذا الأصل ما لا يكاد يُحْصر، فمن له فهم في كتاب الله يستدلُّ بما ذكر من النصوص على ما ترك، ومَن عرف حقيقة قول النفاة علم أنّ القرآن مناقض لذلك مناقضة لا حيلة لهم فيها، وأن القرآن يثبت ما يقدر عليه ويشاؤه من أفعاله تعالى التي ليست هي نفس المخلوقات.

كلام هؤلاء الطوائف

مَن تدبّر كلام هؤلاء الطوائف بعضهم مع بعض تبين له أنهم لا يعتصمون فيما يخالفون به الكتاب والسنة إلا بحجة جدلية يسلمها بعضهم لبعض، وآخر منتهاهم حجة يحتجون بها في إثبات حدوث العالم لقيام الأكوان به أو الأعراض، ونحو ذلك من الحجج التي هي أصل الكلام المحدَث الذي ذمّه السلف والأئمة، وقالوا: إنه جهل، وإن حكم أهله أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام، وكذا مَن عرف حقائق ما انتهى إليه هؤلاء الفضلاء الأذكياء ازداد بصيرة وعلماً ويقيناً بما جاء به الرسول ﷺ، وبأن ما يعارضون به الكتاب والسنة من كلامهم الذي يسمونه عقليات، هي من هذا الجنس الذي لا يتفق إلا بما فيه من الألفاظ المجملة المشتبهة مع مَن قلّت معرفته بما جاء به الرسول وبطرق إثبات ذلك، ويتوهم أن بمثل هذا الكلام يثبت معرفة الله وصدق رسله، وأن الطعن في ذلك طعن فيما به يصير العبد مؤمناً، فيتعجّل ردّ كثير مما جاء به الرسول ﷺ، لظنه أنّه بهذا الرد يصير مصدّقاً للرسول في الباقي.

---

(١) سورة الضحى، الآية: ٥.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(٣) سورة المرسلات، الآيتان: ١٦ و١٧.

(ص ٢٠٧) وهذا مما يبين أن ما جاءت به الرسل هو الحق، وأن الأدلة العقلية الصريحة توافق ما جاءت به الرسل، وأن صريح المعقول، لا يناقض صحيح المنقول، وإنما يقع التناقض بين ما يدخل في السمع وليس منه، وما يدخل في العقل وليس منه، كالذين جعلوا من السمع أن الرب لم يزل معطلاً عن الكلام والفعل، لا يتكلم بمشيئته، ولا يفعل بمشيئته، بل ولا يمكنه عندهم أنه لا يزال يتكلم بمشيئته و يفعل بمشيئته، فجعل هؤلاء هذا قول الرسل، وليس هو قولهم، وجعل هؤلاء من المعقول أنه يمتنع دوام كونه قادراً على الكلام والفعل بمشيئته.

(ص ١١١) فإذا خلق في الشجرة ﴿إني أنا الله رب العالمين﴾[1] ــ ولم يقم هو به كلام ــ كان ذلك كلاماً للشجرة، فتكون هي القائلة!! والحوادث لا تحل به تعالى من غير مشيئة ولا قدرة، بل يفعلها بمشيئته وقدرته، واتصافه بها واجب لأنها صفات كمال، والذات الموصوفة بصفاتها، القادرة على أفعالها، مستلزمة لما يلزمها من الصفات، قادرة على ما تشاؤه من الأفعال.

نفي القول بخلق القرآن

(ص ١٢٣) إن الطريقة المعروفة التي سلكها الأشعري وأصحابه في مسألة القرآن هم ومن وافقهم على هذا الأصل من أصحاب أحمد وغيرهم كأبي الحسن التيمي[2]، والقاضي أبي يعلى[3] وابن عقيل[4] وأبي الحسن الزعفراني[5] من أصحاب أحمد وكأبي المعالي[6] وأمثاله وأبي القاسم الرواسي[7]، وأبي سعيد المتولي[8] وغيرهم من أصحاب الشافعي[9]، والقاضي أبي الوليد الباجي[10] وأبي بكر الطرطوشي[11] وأبي بكر ابن العربي[12] وغيرهم من أصحاب مالك[13] وكأبي منصور الماتريدي[14] وميمون النسفي[15] وغيرهما من أصحاب أبي حنيفة[16]، أنهم قالوا: لو كان القرآن مخلوقاً للزم أن يخلقه إما في ذاته أو في محل غيره، أو قائماً بنفسه، لا في ذاته ولا في محل آخر.

(١) سورة القصص، الآية: ٣٠.
(٢) المتوفى سنة ٢٧٥ هـ.
(٣) المتوفى سنة ٤٥٨ هـ.
(٤) المتوفى سنة ٢٥٥ هـ.
(٥) المتوفى سنة ٢٥٩ هـ.
(٦) المتوفى سنة ٤٧٨ هـ.
(٧) المتوفى سنة ٢٩٠ هـ.
(٨) المتوفى سنة ٤٧٨ هـ.
(٩) المتوفى سنة ٣٠٤ هـ.
(١٠) المتوفى سنة ٤٧٤ هـ.
(١١) المتوفى سنة ٥٢٠ هـ.
(١٢) المتوفى سنة ٥٤٣ هـ.
(١٣) المتوفى سنة ١٧٩ هـ.
(١٤) المتوفى سنة ٣٣٣ هـ.
(١٥) المتوفى سنة ٥٠٨ هـ.
(١٦) المتوفى سنة ١٥٠ هـ.

و (الأول) يستلزم أن يكون محلاً للحوادث.

و (الثاني) يقتضي أن يكون الكلام كلام المحل الذي خلق فيه، فلا يكون ذلك الكلام كلام الله كسائر الصفات إذا خلقها في محل، كالعلم والحياة والحركة واللون وغير ذلك.

و (الثالث) يقتضي أن تقوم الصفة بنفسها، وهذا ممتنع. فهذه الطريقة هي عمدة هؤلاء في مسألة القرآن، وقد سبقهم عبد العزيز المكي[١] صاحب المحاورة المشهورة إلى هذا التقسيم، وقد يظن الظان أن كلامهم هو كلامه بعينه، وأنه كان يقول بقولهم: إن الله لا يقوم بذاته ما يتعلق بقدرته ومشيئته، وأن قوله من جنس قول ابن كلاّب، وليس الأمر على ذلك، فإن عبد العزيز هذا، له في الرد على الجهمية وغيرهم من الكلام ما لا يعرف فيه خروج عن مذهب السلف وأهل الحديث، وذكر طرفاً من هذه المناظرة التي جرت بحضور الخليفة المأمون بين عبد العزيز الكناني المكي[٢] وبشر المريسي[٣] إلى أن قال عبد العزيز: وما كان قبل الخلق متقدماً، فليس هو من الخلق في شيء. ثم قال: فقد كسرت قول بِشر بالكتاب والسنة واللغة العربية، والنظر والمعقول.

ثم قال ابن تيمية ــ معلقاً على كلام عبد العزيز و بشر ــ: والمقصود هنا أن ما قام بذاته، لا يسميه أحد منهم مخلوقاً، سواء كان حادثاً أو قديماً، وبهذا يظهر احتجاج عبد العزيز على بشر، فإن بِشراً من أئمة الجهمية نفاة الصفات، وعنده لم يقم بذات الله تعالى صفة ولا فعل ولا قدرة ولا كلام ولا إرادة، بل ما ثَمّ عنده إلا الذات المجردة عن الصفات والمخلوقات المنفصلة عنها، كما تقول بذلك الجهمية من المعتزلة وغيرهم، فاحتج عليه عبد العزيز بحجتين عقليتين.

(إحداهما) أنه إذا كان كلام الله مخلوقاً، ولم يخلقه في غيره ولا خلقه قائماً بنفسه، لزم أن يكون مخلوقاً في نفس الله، وهذا باطل.

و (الثانية) أن المخلوقات المنفصلة عن الله خلقها الله بما ليس من المخلوقات، إما القدرة كما أقر به بشر، وإما فعله وأمره وإرادته كما قاله عبد العزيز، وعلى

---

(١) المتوفى سنة ٢٤٠ هـ.

(٢) المكي صاحب كتاب «الحيدة» المتوفى سنة

(٣) المتوفى سنة ٢١٨ هـ.

التقديرين ثبت أنه كان قبل المخلوقات من الصفات ما ليس بمخلوق، فبطل أصل قول بشر والجهمية أنه ليس لله صفة، وأن كل ما سوى الذات المجردة فهو مخلوق، وتبين أن الذات يقوم بها معان ليست مخلوقة، وهذا حجة مثبتة الصفات للقائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق على من نَفَى الصفات، وقال بخلق القرآن.

قصور كثير من المصنفين في المقالات والمذاهب عن بلوغ الغاية

(ص ١٥٨) يوجد كثير من المتأخرين المصنفين في المقالات والكلام يذكرون ــ في أصل عظيم من أصول الإسلام ــ الأقوال التي يعرفونها، وأما القول المأثور عن السلف والأئمة الذي يجمع الصحيح من كل قوم، فلا يعرفونه ولا يعرفون قائله، فالشهرستاني صنف الملل والنحل وذكر فيها من مقالات الأمم ما شاء الله، والقول المعروف عن السلف والأئمة لم يعرفه ولم يذكره، والقاضي أبو بكر، وأبو المعالي، والقاضي أبو يعلى، وابن الزعفراني، وأبو الحسين البصري، ومحمد بن الهيضم، ونحو هؤلاء من أعيان الفضلاء المصنفين، تجد أحدهم يذكر في مسألة القرآن أو نحوها عدة أقوال للأئمة ويختار واحداً منها، والقول الثابت عن السلف والأئمة كالإمام أحمد ونحوه من الأئمة لا يذكره الواحد منهم، مع أن عامة المنتسبين إلى السنة من جميع الطوائف يقولون: إنهم متبعون للأئمة كمالك والشافعي وأحمد وابن المبارك[1] وحمّاد بن زيد[2] وغيرهم لاسيما الإمام أحمد فإنه بسبب المحنة المشهورة من الجهمية له ولغيره أظهر من السنة ورد من البدعة ما صار به إماماً لما بعده، وقوله هو قول سائر الأئمة، فعامة المنتسبين إلى السنة يدعون متابعته والاقتداء به ، سواء كانوا موافقين له في الفروع أو لا، فإن أصول الأئمة في أصول الدين متفقة، ولهذا كلما اشتهر الرجل بالانتساب إلى السنة كانت موافقته لأحمد أشد، ولما كان الأشعري ونحوه أقرب إلى السنة من طوائف من أهل الكلام، كان انتسابه إلى أحمد أكثر من غيره كما هو معروف في كتبه... والعصمة إنما هي ثابتة لمجموع الأمة، ليست ثابتة لطائفة بعينها.

---

(١) المتوفى سنة ١٨١ هـ.

(٢) المتوفى سنة ١٧٩ هـ.

قول الحشوية المنتمين إلى الظاهر

(ص ١٥٩) ذهب الحشوية ــ المنتمون إلى الظاهر ــ إلى أن كلام الله تعالى قديم أزلي، ثم زعموا أنه حروف وأصوات، وقطعوا بأن المسموع من أصوات القراء ونغماتهم عين كلام الله تعالى، وأطلق الرعاع منهم القول بأن المسموع صوت الله تعالى عن قولهم.... ومعلوم أن هذا القول لا يقوله عاقل يتصور ما يقول. ولا نعرف هذا القول عن معروف بالعلم من المسلمين، ولا رأينا في كتاب أحد أن المداد الحادث انقلب قديماً، ولا أن المداد الذي يكتب به القرآن قديم، بل رأينا عامة المصنفين من أصحاب أحمد وغيرهم ينكرون هذا القول، و ينسبون ناقله عن بعضهم إلى الكذب، وأبو المعالي وأمثاله أجلُّ من أن يتعمدوا الكذب، لكن القول المحكي قد يُسمع من قائل لم يضبطه، وقد يكون القائل نفسه لم يخبر قولهم، بل يذكر كلاماً مجملاً يتناول النقيضين.

ما جاءت به الكتب والرسل هو الحق

(ص ٢٠٧) وهذا مما يبين أن ما جاءت به الرسل هو الحق، وأن الأدلة العقلية الصريحة، توافق ما جاءت به الرسل، وأن صريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول، وإنما يدخل التناقض بين ما يدخل في السمع وليس منه، وما يدخل في العقل وليس منه، كالذين جعلوا من السمع أن الرب لم يزل معطلاً عن الكلام والفعل، ولا يتكلم بمشيئته، ولا يفعل بمشيئته، فجعل هؤلاء هذا قول الرسل، وليس هو قولهم.

(ج ٣ ص ٨١) فالتوراة مملوءة من وصف الله بمثل ذلك ــ أي من صفات الكمال ــ وكذلك الإنجيل، وسائر نبوات الأنبياء مثل الزبور، ونبوة أشعياء وأرميا، وأساطين الفلاسفة كانوا يقولون بذلك، والسلف من الصحابة والتابعين، وأهلُ الحديث متواتر عنهم ذلك.

علم مما تقدّم أن الله تعالى كامل الصفات، له الأسماء الحسنى، ولا يكون عن الكامل في ذاته وصفاته إلا الفعل المحكم، لكن تلك الفِرَق جعلت قواعدها وأصولها محكمة، وما أخبر به الرسول متشابهاً، ثم أصّلوا أصلاً في ردّ هذا المتشابه إلى

المحكم، وما أصّلوه مخالف لصريح العقل وسليم الفطرة، كما هو مخالف لما جاءت به الرسل عن الله.

قال الإمام ابن القيم: وقد كفانا شيخ الإسلام ابن تيمية هذا المقصد في عامّة كتبه، لا سيما كتابه الذي وسمه «ببيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح» فرّق فيه شملهم كلّ ممزّق، وكشف أسرارهم، وهتك أستارهم، فجزاه الله عن الإسلام وأهله أفضل الجزاء. وقال أيضاً:

وجملة أمرهم أنهم في المسلمين كالزغل في النقود، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد، و يعرف حاله الناقدُ البصير من الناس، وقليل ما هم أهـ.

أقول: وخاتمة القول في هذا الباب أنّ كلام الله ورسوله وكلام أئمة السنّة والعلم، هو أوضح تبياناً، وأرسخ إيماناً، وأوفى ميزاناً، يتآخى فيه العقل والنقل، والطبع والشرع، والفطرة والدين، وأنه هو الأسلم، والأعلم، والأحكم، وأنَّ نفاة الأفعال والصفات، يشبهونه سبحانه بالجمادات ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾[1].

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٢٨.

مجموعة تفسير

شيخ الإسلام ابن تيمية

من ست سور: الأعلى، الشمس، الليل، العلق، البينة، الكافرون صححه وعلق عليه، مع مقدمة بالانكليزية عبد الصمد شرف الدين. مطبعة «ق» بمباي، الهند.

ليست هذه المجموعة المؤلفة من تفسير هذه السور الست للإمام أحمد بن تيمية (البالغة ٤٨٠ صفحة عدا الفهارس) تفسيراً لها فحسب، بل هي في الحقيقة تفسير لبعض سور القرآن، ومناظرة لعلماء الكلام المؤولة لآيات الصفات، والمعطلة لمعانيها اللغوية والشرعية، كالجهمية والمعتزلة والقدرية، وتوفيق بين صحيح المنقول وصريح المعقول على أفضل الوجوه. وقد كملت هذه المجموعة بتعليقات الأستاذ المولع بدراسة كتب الشيخين ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية السيد عبد الصمد شرف الدين، فقد بيّن بتعليقاته المبهم، وفصّل المجمل، وأوضح المشكل، وملأ البياض بما نقله من كتبها مفصولاً عن الأصل، وبما أضافه من قوله طبقاً لما اقتضاه البحث. وخرّج الأحاديث، وترجم الأعلام، وذكر ما اشتهروا به، مع تاريخ وفياتهم.

وقد ظفر الأستاذ بهذه المجموعة في كتاب:

«الكواكب الدراري في ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاري»

لابن عروة الدمشقي الحنبلي[1] المحفوظ بخزانة دار الكتب المصرية تحت رقم (٦٤٥) تفسير، وهذه المجموعة مما كتبه شيخ الإسلام في آخر عمره، وهو منعزل عن الناس في خلوة السجن، كما تراه في مقدمة السيد شرف الدين، وقد طبعها على

(١) المتوفى سنة ٨٣٧ هـ.

أحدث ما بلغه فنّ الطباعة من إتقان، وجعل في رؤوس الصحائف اليمنى أسماء السور المفسرة، وفي اليسرى خلاصة ما تضمنته تلك الصحائف من مباحث، وفي الشواهد القرآنية ــ وما أكثرها ــ أسماء سورها وأرقام آياتها، وبين كل بضعة أسطر من الأصل، عنوان للناشر بما اشتملت عليه، وفي أول الكتاب فهرس عام لمباحث سوره المفسّرة، وفي آخره فهرس مفصّل لأسماء الأعلام، والفِرَق، والأماكن، والكتب، مع الإشارة إلى أرقام صحائفها مهما تكررت، ويتلو هذا الفهرس جدول الخطأ والصواب. وختمه بمقدمة الكتاب باللغة الانكليزية.

ومن غرر مباحث الكتاب: صفة العلو، ومسألة النزول، والرد على دائرة المعارف الإسلامية، وعلى ابن بطوطة (وقد رد عليهما من قبل كاتب هذه السطور في مجلة الرسالة المصرية، ومجلة العالم الإسلامي البغدادية)، قيام إبراهيم وموسى ومحمد بأصل الدين ــ التوحيد ــ حل مشكلات تفسير سورة التين.

أقول: أما صفة العلو فقد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن الله تقدّست ذاته هو فوق سماواته، التي هي مقر ملائكته ومهبط وحيه، وأنه مستوٍ على عرشه، وبائن من خلقه، لا يحل فيهم ولا يمتزح بهم، ومن هنا يُعلم المراد من المعية في مثل قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾،[1] ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾،[2] ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾،[3] ﴿إن الله مع الذين اتقوا﴾،[4] فليس حقيقة هذه المعية المخالطة والمجاورة، بل هي منفية قطعاً، وإنما هي معية العلم والقدرة والإحاطة، ومعية النصر والتأييد والمعونة، ومثل ذلك معنى القرب.

وأما وحدة الأديان، وأخوة الرسل الكرام، فقد بيّن أن المنسوخ الذي تنوعت فيه الشرائع قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب والرسل، فإن الذي اتفقت عليه هو الذي لا بد للخلق منه في كل زمان ومكان، وهو الإيمان بالله واليوم

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٢) سورة طه، الآية: ٤٦.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ٧.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٨.

الآخر، والعمل الصالح، وعامة السور المكية كالأنعام، والأعراف، آل حم، وآل طس، وآل آلر، هي من الأصول الكلية التي اتفقت عليها شرائع المرسلين، كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والصدق والعدل والإخلاص، وتحريم الظلم والفواحش والشرك، والقول على الله بلا علم.

رحم الله المؤلف ورضي عنه، وجزى أفضل الجزاء الناشر، وكل من عاونه في إبراز هذا الكتاب الجليل، وقد ذكرهم في مقدمته، وأثنى عليهم أطيب الثناء.



بين ابن المطهر الحلّي وابن تيمية

المدخل

إن السنة والشيعة هما أكبر مظهر للمسلمين اليوم، وإن بلغ أهل السنة أضعاف الشيعة عدداً، وإن أضر شيء في الأمة الواحدة هو العصبية الموروثة والتفرق الذميم، ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾.(١)

وقد كان ينبغي على كل من يدعي الحب والولاء للإمام علي عليه السلام أن يأخذ بأدبه وهَدْيه، و يقف من محاربيه عند حدود أمره ونهيه، وها هي ذي أقواله وأعماله في «نهج البلاغة» وغيره.

لقد بايع عليّ للأئمة الثلاثة من قبله، وتنازل ولده الحسن عن الخلافة لمعاو ية من بعده، وأصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، طبقاً لما أخبر به جده الصادق الأمين، عليه وآله الصلاة والتسليم.

في «نهج البلاغة» أن علياً سُئل عن الخوارج: أكفارٌ هم؟ قال: من الكفر فرُّوا! قيل أفمنافقون؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، قيل: فما هم؟ قال: قوم بغَوا علينا فقاتلونا وقاتلناهم.

وفي «نهج البلاغة» أيضاً أنه قال ــ وقد سمع قوماً من أصحابه يسبُّون أهل الشام أيام حربهم بصفين ــ: إني لأكره أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر.

قلت: ومعلوم من حال أهل السنة أنهم يقصون ما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم و يصفون أعمالهم، و يذكرون حالهم، ولكنهم يؤولون التشاجر بينهم تأدباً

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

معهم احتراماً لصحبتهم، وحفظاً لكرامتهم، ولحسن بلائهم في نشر الدعوة الإسلامية. على أنه قد انقضت عصور الأمويين والعباسيين، وأصحاب الجمل والنهروان وصفين، وحسابنا وحسابهم على رب العالمين:

وليس بضائري ما قد أتوه   إذا ما الله أصلح ما لديه

وقد كنت قرأت كتاب «أوائل المقالات» للشيخ المفيد[1] ومعه شرح عقائد شيخه ابن بابويه القمي المعروف بالصدوق[2] فرأيت فيهما بعض ما في غيرهما ــ كالكافي والتهذيب والوافي ــ من الأحكام الصادرة: باللعن والتكفير والتخليد في النار، لمن أورثوهم الأرض والديار!!

قلت: لا شك أن هذه الكتب تورث قراءها وغَراً وحقداً، وعداء وبغضاً وتنطق ألسنتهم بأفحش القول وأوحشه، لرجال الصدر الأول فمن دونهم، وفي مقدمتهم الخلفاء الثلاثة، وبعض أمهات المؤمنين، ومن معهم من المهاجرين والأنصار، ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه بنص القرآن، ولم نر انتقاداً ولا اعتراضاً على الكتابين الأولين ممن صححوهما، وهم ثلة من أشهر مجتهدي الشيعة في عصرنا، بل رأينا حركة الطبع والنشر قد قويت في العراق وإيران والشام[3]، وصدرت منها كتب كثيرة في هذه الأعوام الأخيرة، وكلها ردود على السنيين، وزراية على أهل المفاخر والمآثر في الإسلام، وهي لا تعدو أمّهات المسائل التاريخية التي وقعت في الصدر الأول والأحداث التي تلتها.

ولما كانت هذه الوقائع قد أحاط بها خُبراً شيخ الشيعة الإمامية في عصره ابن المطهر الحلي[4] في مؤلفه الذي سماه «منهاج الكرامة في معرفة الإمامة» وأجابه عنها واحدة فواحدة إمام السنة أحمد بن تيمية في ردّه «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية» في أربعة أجزاء، جاء الحافظ الذهبي[5] واختصره بكتاب سماه «المنتقى»[6] وقد حققه وعلق حواشيه ووقف على طبعه الكاتب الكبير

---

(١) المتوفى سنة ٤١٣ هـ.

(٢) المتوفى سنة ٣٨١ هـ.

(٣) والآن سبقت لبنان جميع البلاد غير أن الكثير مما يطبع ــ تصويراً ــ من غير تحقيق أو تدقيق أو تعليق ــ الناشر ــ.

(٤) المتوفى سنة ٧٢٦ هـ.

(٥) المتوفى سنة ٧٤٨ هـ.

(٦) طبع في مصر سنة ١٣٧٤ هـ.

السيد محب الدين الخطيب[1]، وقد أهديت منه نسخ إلى المجمع العلمي بدمشق، ولبعض الفضلاء، والمُهدي هو الأستاذ السلفي الشهير الشيخ محمد نصيف عين أعيان الحجاز[2]؛ كما أهدي إلى المجمع العلمي و بعض أعضائه من كتب الشيعة أيضاً، ومنهم كاتب هذه السطور، وقد وصفنا بعضها في باب «التعريف والنقد» من مجلة المجمع.

ونصف الآن كتاب «المنتقى» الذي يقع في مجلد ضخم يقرب من ستمائة صفحة بالقطع المتوسط، وهو يشتمل على فصول كثيرة في إمامة الخلفاء الراشدين، وما ظهر على أيديهم من الخير العظيم. ومجمل القول: إن ابن المطهّر ينفي الخصائص، و يثبت النقائص للخلفاء الثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، و يتعقبه ابن تيمية فيثبت العكس، وهما إماما السنة والشيعة في عصرهما، وقد كتب من جاء بعدهما في موضوع الإمامة الكبرى، ولكن الحملة قد اشتدت في هذا الزمن العصيب على السنّيين، وإن اختلفت كتب الشيعة وردودهم في الأسلوب قوة وضعفاً، وقسوة وليناً.

ولما كانت مجلة مجمعنا العلمي تعنى بنشر حقائق التاريخ، مصفاة من الشوائب، بعيدة عن عصبية المذاهب، مسجلة ما يجب تسجيله من الوقائع والحوادث، لاسيما ما كان بأقلام الأعلام ــ رأينا أن نثبت فيها شذرات من هذا الحوار، موردة بغاية الاختصار، مغنية عن قراءة هذه الكتب التي ظهرت وستظهر في أمر الخلافة العظمى، وما جرى بين الصحابة الكرام في شأنها، وقد افتتن الناس بها، وتعادَوا من أجلها هذه القرون الطويلة، ولتكن أجوبة الإمام ابن تيمية التي أوجزناها وأجملناها هنا بالكلم الوجيز كما ستراها ــ جواباً من كل سنيّ، وجعلنا كلّ ما نقلناه عن الأستاذ (الخطيب) بين قوسين. ونبدأ القول بإيراد فصل عقده كتاب «المنتقى» في تقديم الخلفاء الأربعة بترتيبهم الزمني، سلك فيه الإمام ابن تيمية طريقة المعقول، الموافقة لصريح المنقول، قال[3] (رحمه الله تعالى):

فصل

وهنا طريق يمكن سلوكها لمن له معرفة بالأخبار، فإن كثيراً من العلماء يتعذر

---

(١) المتوفى بمصر سنة ١٣٨٩ هـ-١٩٦٩ م.

(٢) المتوفى بجدة سنة ١٣٩١ هـ-١٩٧١ م.

(٣) ص ٤٨٢ من المنتقى.

عليهم التميز بين الصدق والكذب من جهة الإسناد، وإنما ينهض بذلك جهابذة الحفاظ: نُقَدّر أن الأخبار المتنازع فيها لم تكن، فنرجع إلى ما هو معلوم بالتواتر، أو بالعقل والعادات، أو مادلت عليه النصوص المتفق عليها فنقول: من المتواتر أن أبا بكر لم يطلب الخلافة برغبة ولا برهبة، فلا بذل فيها مالاً، ولا شهر عليها سيفاً، ولا كانت له عشيرة ضخمة، ولا عدد من الموالي تقوم بنصره كما جرت عادة طلاب الملك، بل ولا قال: بايعوني، وإنما أشار ببيعة عمر أو ببيعة أبي عبيدة، ثم من تخلَّف عن مبايعته لم يؤذه ولا أكرهه عليها كسعد بن عبادة، ثم الذين بايعوه طائعين، هم الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، الذين رضي الله عنهم، فقاتل بهم المرتدين، وفارس والروم، وثبَّت بهم الإسلام وأهله، ولا أكل منها ولا لبس إلا كعادته وعيشه، فلما جاءه اليقين، خرج منها أزهد مما دخل فيها، ولم يستأثر فيها بشيء عنهم، ولا آثر بها قرابته، بل نظر إلى أفضلهم في نفسه فولاّه عليهم (وهو عمر رضي الله عنه) فأطاعوه كلُّهم ففتح الأمصار، وقهر الكفار، وأذلّ أهل النفاق، وبسط العدل، ووضع الديوان والعطاء، لازماً لعيش من قبله في مأكله ومشربه وملبسه، حتى خرج منها شهيداً لم يتلوث لهم بمال، ولا وَلَّى أحداً من أقاربه ولاية، هذا أمر يعرفه من يعرف وينصف.

ثم بايعوا عثمان كلهم طوعاً منهم، فسار، وبَنى على أمر قد استقر قبله، بسكينة وحلم، وهدى ورحمة، وكرم ولين، لكن لم تكن فيه قوة عمر، ولا سياسته التي بهرت العقول، ولا كمال عدله الذي ملأ الوجود، ولا فرط زهده الذي ما ينكره إلا جاهل. فطمع فيه الناس بعض الطمع، وتوسّعوا في الدنيا، وكثرت عليهم الأموال، ودخل ــ بسبب توليته أقاربه(١)ــ عليه الداخل، وأنكرت منه أمور ما اعتادها الناس قبله، وتولّد من رغبة بعض الناس في الدنيا ــ وضعف خوفهم من الله تعالى، ومنه ومن ضعفه هو، بالنسبة إلى كمال الذين قبله، ومما حصل من أقاربه في الولاية والمال، ــ ما استحكم به الشر، وحرك الفتنة، حتى قتل مظلوماً، وذبحوه صبراً.

فتولّى علي رضي الله عنه والفتنة قائمة، واتُّهم بالتخلي عن عثمان حتى قُتل،

---

(١) إن هذه من المسائل التي تحتاج إلى استقراء ومعرفة من ولاه، وما هي صفات الذين ولاهم. ويقارن ذلك مع غيره من الخلفاء والدول حتى لا يظلم أحد بكلام عام يطلق ويعمم ــ الناشر ــ

وبعضهم اتهمه بدمه، والله يعلم براءته من دمها[1]، ثبت عنه أنه لم يرض بقتله ولا أعان عليه، فلم تصفُ قلوب كثيرة منهم، ولا أمكنه هو قهرهم حتى يطيعوه، ولا اقتضى رأيه الكف عن القتال حتى ينظر ما يؤول إليه أمره كما أشار عليه ولده الحسن.

فظنّ أن الطاعة تحصل، والأمة تجتمع بالقتال، فما زاد الأمر إلا شدة وافتراقاً، حتى خرج عليه من جنده ألوف ومرقوا، وكفّروه وقاتلوه ــ قاتلهم الله ــ حتى كان في آخر أمره يطلب هو الكف عن قتال من لم يطعه، فكان آخر الخلفاء الراشدين الذين ولايتهم خلافة النبوة.

ثم آل الأمر إلى معاوية أول الملوك كما قال عليه الصلاة والسلام:

«الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً» وسيرة معاوية من أجود سِيَر الملوك بالنسبة. انتهى.

هذه فلسفة عقلية للإمام ابن تيمية في شأن الخلافة الإسلامية، وتولية الخلفاء الراشدين الأربعة، وقد جاءت طبيعية كما ترى. ومن هنا نبتدىء بذكر نماذج من الحوار الذي دار بين ابن المطهر وابن تيمية، جاعلاً إياه على طريق السؤال والجواب، مجرداً عن التنابز بالألقاب، لتتجلى شمس الحقيقة للناظرين، لا يغشاها حجاب ولا سحاب، ونرمز للأول بحرف (الميم) وللثاني بحرف (التاء).

(ابن المطهر): «إن مذهب الإمامية واجب الاتباع... أخذوا دينهم عن المعصومين، وغيرهم اختلفوا، وتعددت آراؤهم وأهواؤهم، فمنهم من طلب الأمر لنفسه بغير حق، وتابعه أكثر الناس طلباً للدنيا».

(ابن تيمية): هذا الصنف هو أشرف الأمة، وقد قال سبحانه في شأنهم: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾[2] فوعدهم الاستخلاف، وأخبر برضاه عنهم، وبأنهم متقون، وبأنه أنزل السكينة عليهم، وهذه النعوت منطبقة على الصحابة الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، فإنه إذ ذاك الزمان حصل لهم الاستخلاف، وتمكين الدين والأمن بعد الخوف،

---

(١) ولا أعلم أحداً من أهل السنة اتهم سيدنا علي بذلك. ولكن كان طلب القصاص من القتلة هو حجة الذين خرجوا عليه في الظاهر، والله أعلم بالسرائر.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

إلى أن قهروا فارس والروم، وافتتحوا الشام والعراق، ومصر والمغرب وخراسان وأذربيجان وغير ذلك، فلما قتل عثمان وحصلت الفتنة لم يفتحوا شيئاً، بل طمع فيهم الروم وغيرهم.. وأريقت الدماء، فأين ما بعد قتلِه مما قبلَه؟؟

(م) فإذا قلت: إن أبا بكر ومبايعيه طلبوا الدنيا والرياسة.

(ت) (فالجواب أن أبا بكر): «بويع باختيارهم بلا سيف ولا عصا، واستوثق له الأمر فلم يولّ أحداً من أقاربه، ولا خلف لورثته مالاً، وأنفق مالاً كثيراً في سبيل الله، وأوصى إلى بيت مالهم ما كان عنده، حتى قيل: يرحمك الله أبا بكر لقد اتبعت الأمراء بعدك، وما قتل مُسلم على إمارته، بل قاتل بالمسلمين المرتدين والكفار، فلما احتضر استخلف على الأمة القويّ الأمين العبقري (عمر) لا لقرابة ولا لنسابة ولا لدنيا، بل اجتهد للمسلمين، فحمدت فراسته وشكر نظره، بالذي افتتح الأمصار،ونصب الديوان، وملأ بيت المال، وعم الناس بالعدل، مع ملازمته لهدي صاحبه وخشونة عيشه، وعدم توليته أقاربه ثم ختم الله له بالشهادة».

(م) نقلك عن أهل السنة: أن العبد لا تأثير له في الكفر والمعاصي.

(ت) نقل باطل، بل جمهور من أثبت القدَر يقول: إن العبد فاعل لفعله حقيقة، وإن له قدرة واستطاعة، ولا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية، بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل من أن الله يخلق السحاب بالرياح، وينزل الماء بالسحاب، وينبت النبات بالماء، والله خالق السبب والمسبب.

(القول الثاني): ان الظلم مقدور لله منزه عنه، كتعذيب الإنسان بذنب غيره، كما قال تعالى: ﴿ومن يعملْ من الصالحات وهو مؤمن فلا يخافُ ظلماً ولا هضماً﴾[1] وهؤلاء يقولون: الفرق بين تعذيب الإنسان على فعله الاختياري وغير فعله الاختياري مستقر في فِطَر العقول، ويقولون: الاحتجاج بالقدر على الذنوب مما يعلم بطلانه بالعقل، فإن الظَالم لغيره لو احتج بالقدر لاحتج ظالمه بالقدر أيضاً فالاحتجاج على فعل المعاصي بالقدر باطل باتفاق الملل والعقلاء، وإنما يحتج به من

---

(١) سورة طه، الآية: ١١١.

اتبع هواه كما قيل: أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به، ولو كان القدر حجة لفاعل الفواحش لم يحسن أن يلوم أحد أحداً، ولا أن يعاقب أحد أحداً[١].

(م) وذهب من عدا الإمامية والإسماعيلية إلى أن الأنبياء والأئمة غير معصومين، فجوزوا بعثة من يجوز عليه الكذب والسهو والسرقة.

(ت) ما ذكرته عن الجمهور في تجويز ذلك على الأنبياء (باطل) فإنهم متفقون على عصمة الأنبياء عليهم السلام في تبليغ الرسالة، وطاعتهم واجبة ــ إلا عند الخوارج ــ والجمهور يجوزون عليهم الصغائر وإنهم لا يُقَرون عليها.

وأما عصمة الأئمة فنعم كما قال، لم يقل بها إلا من ذكر، وناهيك بقول عَرِيٍّ عن الحجة.

قالوا: إن الله لم يخل العالم من أئمة معصومين لما في ذلك من المصلحة واللطف؟.

قلنا: فهذا الغائب المنتظر المفقود، لم يحصل به شيء من المصلحة واللطف، سواء كان ميتاً كما نقول، أو حياً كما تزعمه الإمامية.. ثم لم يحصل بعده أحد من الأثني عشر له سلطان (إلا علي كرم الله وجهه).

ومن المعلوم بالضرورة أن حال اللطف والمصلحة التي كان المؤمنون فيها زمن الخلفاء الثلاثة أعظم ما كان في زمانه من الفرقة والفتنة والقتال، والله قد أمرنا بالرد عند التنازع إلى الله والرسول، ولو كان للناس معصوم غير الرسول لَوَجَه الردّ إليه.

(م) وهم يرون القول بالقياس والرأي، فأدخلوا في دين الله ما ليس منه، وحرّفوا أحكام الشريعة، وأحدثوا مذاهب أربعة لم تكن في زمن النبي ﷺ وأهملوا أقاويل الصحابة!.

(ت) فالجواب أن هذا وارد عليكم، فالزيدية تقول بالقياس.

ثم قوله: «أدخلوا في دين الله ما ليس منه» فهذا ليس في طائفة أكثر (من الإمامية).. حيث قالوا: (مرج البحرين﴾[٢] علي وفاطمة ﴿يخرج منهما اللؤلؤ

(١) انظر رسالة في «الاحتجاج بالقدر» لشيخ الإسلام من مطبوعاتنا، وقد خرج أحاديثها أستاذنا الألباني.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٩.

والمرجان﴾[1] الحسن والحسين ﴿في إمام مبين﴾[2] علي (وآل عمران على العالمين)[3] آل أبي طالب وسموا أبا طالب عمران، ﴿ والشجرة الملعونة﴾[4] بني أمية ﴿ أن تذبحوا بقرة﴾[5] عائشة، ﴿ لئن أشركت ليحبطنّ عملك﴾[6] لئن أشركت بين أبي بكر وعمر، ونحو ذلك مما وجدته في كتبهم.

ومن ثَمّ دخلت الإسماعيلية في تأويلات الواجبات والمحرمات.

(م) وأحدثوا مذاهب أربعة، وأهملوا أقاويل الصحابة.

(ت) متى كانت مخالفة الصحابة شيئاً منكراً عندكم؟ ومن الذي يخالف إجماع الصحابة نحن أو أنتم؟ ومن الذي كفّرهم وضلّلهم؟.. إنه لم يكن في العترة النبوية ــ بني هاشم ــ على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم) من يقول بإمامة اثني عشر، ولا بعصمة أحد بعد النبي ﷺ ولا بكفر الخلفاء الثلاثة، بل ولا من يطعن في إمامتهم، وأما المذاهب فإن الأربعة لم يكونوا في وقت واحد. ولا كان فيهم من يقلد الآخر، ولا من أمرَ الناس باتباعه، بل كان كل منهم يدعو إلى متابعة الكتاب والسنّة، ويرد على صاحبه.

وإن قلت: إن الناس اتبعوا الأربعة فهذا أمر اتفاقي، والأربعة لم يخترعوا علماً لم يكن، ثم لم يقل أهل السنة: إن إجماع الأربعة حجة معصومة، ولا إن الحق منحصر في قولهم، وإن ما خرج عنه باطل... ولا شك أن القياس فيه فاسد، ليس يوجب بطلان جميعه، كما أن وجود الموضوعات في المرويات لا يوجب بطلان جميع الحديث.

ــ (لشيخ الإسلام رسالة في بيان القياس الصحيح والقياس الفاسد، ولتلميذه الإمام شمس الدين ابن القيم تحقيق واسع في ذلك، وسبق لنا جمعها في كتاب عنوانه «القياس في الشرع الإسلامي» (الخطيب) ــ

(م) ثم ذكر (أي ابن المطهر) حديث ابن عمر: «يخرج في آخر الزمان رجل

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.
(٢) سورة يس، الآية: ١٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٦٧.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

من ولدي ... الحديث».

(ت) قلنا: ذا حجة عليكم، فإن لفظه: «يواطىء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي» يعني اسمه (محمد بن عبد الله) لا (محمد بن الحسن).

ثم قد رُوي عن علي (رضي الله عنه) أنه من ذرية الحسن، لا الحسين.

(م) فهؤلاء الأئمة المعصومون الذين بلغوا الغاية في الكمال.

(ت) إن دعوى العصمة في هؤلاء لم يذكر عليها حجة إلا ما ادعاه من أنه يجب على الله، أن يجعل للناس إماماً معصوماً، ليكون لطفاً ومصلحة في التكليف، وقد تبين فساد هذه الحجة من وجوه أدناها إن هذا ــ أي اللطف والمصلحة ــ مفقود لا موجود، فإنه لم يوجد إمام معصوم حصل به لطف ولا مصلحة، ولو لم يكن في الدليل على انتفاء ذلك إلا المنتظر الذي قد علم بصريح العقل أنه لم ينتفع به أحد لا في دين ولا دنيا، ولا حصل لأحد من المكلفين به مصلحة ولا لطف، لكان هذا دليلاً على بطلان قولهم فكيف مع كثرة الدلائل على ذلك.

(م) لم يتخذوا ما اتخذ غيرهم من الأئمة المشتغلين بالملك والمعاصي.

(ت) كلام باطل، فإن علماء أهل السنة المعروفين بالعلم عند أهل السنة متفقون على أنه لا يُقتدى بأحد في معصية الله، ولا يتخذ إماماً في ذلك، وإن أراد أن أهل السنة يستعينون بهؤلاء الملوك فيما يحتاج إليه في طاعة الله، و يعاونونهم على ما يفعلون من طاعة الله، فيقال له: ان كان اتخاذهم أئمة بهذا الاعتبار محذوراً، (فالإمامية) أدخل منهم في ذلك [والنصير الطوسي شيخ المؤلف[1] مثل واضح على استعانة علمائهم بالملوك الكفار والفجار. وإعانتهم والعمل في خدمتهم، وهو المسؤول مع عدو الله ابن العلقمي ومستشاره ابن أبي الحديد، عن الذبح العام الرهيب الذي ارتكبه الوثني هلاكو في أمة محمد ﷺ سنة ٦٥٥ عند استيلائه على عاصمة الإسلام بغداد بخيانة ابن العلقمي ومستشاره، وتحريض هذا الفيلسوف].

(م) ومنع أبو بكر فاطمة إرثها، والتجأ إلى رواية انفرد بها، وكان هو الغريم

---

(١) بل ابن المطهر نفسه استعان بالملوك والحكام.

لها، لأن الصدقة تحل له؟ لأن النبي ﷺ[1] قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» على ما رووه عنه.

(ت) بل رواه ــ أي هذا الحديث ــ عن النبي ﷺ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، والعباس، وأزواج النبي ﷺ وأبو هريرة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

وقوله: كان الغريم لها: إن أبا بكر لم يدع التركة لنفسه، وإنما هي صدقة لمستحقها. وأيضاً فتيقن الصحابة، وأولهم علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ لا يورث، ولهذا لما ولي علي الخلافة لم يقسم تركة النبي ﷺ ولا غيَّرها عن مصرفها، وعموم آية الميراث قد خُص منه هذا، وأنه لا يرث الكافر، ولا القاتل عمداً، ولا العبد وغير ذلك.

ثم إن أبا بكر وعمر (رضي الله عنهما) قد أعطيا علياً وبنيه (رضي الله عنهم) من المال أضعاف ما خلفه النبي ﷺ، وما خلفه النبي ﷺ فقد سلمه عمر إلى علي والعباس (رضي الله عنهم) يليانه و يفعلان فيه ما كان النبي ﷺ يفعله، وهذا مما ينفي التهمة عن أبي بكر وعمر.

[لو كان إرثاً لما كان منحصراً بفاطمة، بل هو إرث زوجاته أمهات المؤمنين أيضاً، فالذي وقع لفاطمة من أمر الإرث المزعوم وقع مثله لعائشة، وحفصة، وسائر أمهات المؤمنين، ووقع مثله لعمله العباس...

ومع ذلك فإن ربع فدك وخمس خيبر أبيح لآل البيت يأكلون منه حاجتهم، كما كانت الحال في حياته ﷺ والباقي صرف حيث كان يصرف النبي ﷺ ما زاد عن حاجته منه].

(م) وأجمعوا على قتل عثمان!.

(ت) إن الجمهور لم يأمروا بقتله، ولا رضوه، ولم يكن أكثر المسلمين بالمدينة، بل كانوا بالأمصار ــ من بلاد المغرب إلى خراسان ــ ولم يدخل خيار المسلمين في ذلك، وإنما قتله طائفة من المفسدين في الأرض، من أوباش القبائل ورؤوس

---

(١) وأعمامه الآخرون.

الشر. وعن علي قال: اللهم العن قتلة عثمان، في البر والبحر والسهل والجبل.

وغاية ما يقال: انهم لم ينصروه، وفتروا عن إعانته بما رأوه، وما ظنوا أن الأمر يبلغ إلى قتله.

ومن المعلوم أن المسلمين أجمعوا على بيعة عثمان، وما أجمعوا على قتله، فهلا كان الاجماع على بيعته حقاً لتيقن الاجماع عليها؟؟... إن عثمان من أعيان السابقين الأولين من المهاجرين، من طبقة علي، وطلحة، والزبير، وهو خليفة للمسلمين أجمعوا على بيعته، بل لم يشهر في الأمة سيفاً ولا قتل على ولايته أحداً [ولما جاء البغاة المدينة للبغي عليه، كانت جيوش عثمان، ورجال الكفاح من الصحابة كلهم في ميادين القتال في الغرب والشرق إلى أعمال آسيا التي يحكمها السوفييت الروسيون الآن][1].

(م) إن النبي ﷺ لعن معاوية الطليق ابن الطليق، وقال: «إذا رأيتموه على منبري فاقتلوه».

(ت) هذا الحديث ليس في شيء من كتب الإسلام، وهو عند الحفاظ كذب، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

[وقد رآه الحسين وغيره من الصحابة على المنبر النبوي، وصلّوا كلهم وراءه، لأنه كان إمامهم، وخليفة رسول الله فيهم].

وأما قولك: الطليق ابن الطليق، فما هذا بصفة ذم، فإن الطلقاء غالبهم حسنُ إسلامهم، كالحارث بن هشام، وابن أخيه عكرمة، وسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية، ويزيد بن أبي سفيان، وحكيم بن حزام وأمثالهم، وكانوا من خيار المسلمين، ومعاوية ممن حسن إسلامه، وولاه عمر بعد أخيه يزيد، ولم يكن عمر والله ممن يحابي، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

---

(١) دخل الروس على أيدي الصحابة الكرام في دين الله أفواجاً. وقد لبى مجمعنا العلمي دعوة المجمع الموسكوي سنة ١٣٧٤هـ ــ ١٩٥٤م: واجتمعت أنا هناك باخواني المسلمين، وصليت الجمعة في جوامع موسكو وطاشقند، وزرنا قبر قثم بن العباس «رضي الله عنهما» في سمرقند، وشاهدنا جامع «لينين غراد» الذي بنوه بعد الانقلاب الأخير في عاصمة الروس القديمة ﴿و يأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ ــ البيطار ــ.

ثم إن معاوية بقي على دمشق وغيرها عشرين سنة أميراً، وعشرين سنة خليفة، ورعيته يحبونه لإحسانه، وحسن سياسته، وتأليفه لقلوبهم.

(م) وقاتل علياً، وعلي عندهم رابع الخلفاء، إمام حق، وكل من قاتل إمام حق، فهو باغ ظالم.

(ت) قلنا: نعم، والباغي قد يكون متأولاً معتقداً أنه على حق، وقد يكون بغيه مركباً من تأويل وشهوة وشبهة، وهو الغالب، وعلى كل تقدير فهذا لا يرد، وإنا لا ننزه هذا الرجل ولا من هو أفضل منه عن الذنوب، والحكاية مشهورة عن المسور بن مخرمة أنه خلا بمعاوية، فطلب منه معاوية أن يخبره بما ينقمه عليه، فذكر المسور أموراً، فقال (أي معاوية): يا مسور ألك سيئات؟ قال نعم. قال: أترجو أن يغفرها الله؟ قال نعم، قال: فما جعلك أرجى لرحمة الله مني؟ وإني مع ذلك والله ــ ما خيّرت بين الله وسواه إلا اخترت الله على ما سواه، ووالله لما أليه من الجهاد، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر أفضل من عملك، وأنا على دين يقبل الله من أهله الحسنات، ويتجاوز لهم عن السيئات.

ثم أهل السنة تقول: الإمام الحق ليس معصوماً، ولا يجب على الإنسان أن يقاتل معه كل من خرج عن طاعته، ولا أن يطيعه الإنسان فيما يعلم أنه معصية، وأن يتركه أولى، وعلى هذا ترك جماعة من الصحابة القتال مع علي لأهل الشام.(1)

(م) إن معاوية قتل جمعاً كثيراً من خيار الصحابة.

(ت) الذين قُتلوا من الطائفتين، قتل هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء، وأكثر الذين كانوا يختارون القتال من الطائفتين لم يكونوا يطيعون علياً ولا معاوية، وكان علي ومعاوية رضي الله عنهما أطلب لكف الدماء من أكثر المقتتلين، لكن غُلبا فيما وقع، والفتنة إذا ثارت عجز الحكماء عن إطفاء نارها.

(م) وتمادى بعضهم في التعصب حتى اعتقد إمامة يزيد، مع ما صدر عنه من قتل الحسين، وسبي نسائه في البلاد على الجمال بغير أقتاب، وزين العابدين

---

(1) ثم ان عثمان كان عندهم امام حق وعدل، ومع ذلك فقد تخلف عن نصرته أكثرهم؟!.. ولم يكفرهم أهل السنة، ولم يضللهم.

مغلول .

(ت) أما يزيد، فلم يأمر بقتل الحسين باتفاق أهل النقل، ولكن كتب إلى ابن زياد أن يمنعه عن ولاية العراق، ولما أراد الحسين (رضي الله عنه) أن يخرج إلى أهل العراق ــ لما كاتبوه كتباً كثيرة ــ أشار عليه أفاضل أهل العلم والدين كابن عمر، وابن عباس أن لا يخرج، وغلب على ظنهم أنه يقتل، حتى إن بعضهم قال: أستودعك الله من قتيل، وقال بعضهم: لولا الشناعة لأمسكتك، ومنعتك من الخروج، وهم بذلك قاصدون نصيحته، طالبون لمصلحته ومصلحة المسلمين، فتبين أن الأمر على ما قاله أولئك، إذ لم يكن في الخروج مصلحة، لا في دين ولا في دنيا، بل تمكن أولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله ﷺ حتى قتلوه مظلوماً شهيداً .

(ثم) إن عنيت باعتقاد إمامة يزيد أنه كان ملك وقته، وصاحب السيف كأمثاله من المروانية والعباسية، فهذا أمر متيقن، وحكم يزيد على حوزة الإسلام سوى مكة، فإنه غلب عليها ابن الزبير، وامتنع عن بيعة يزيد، ولم يدعُ إلى نفسه حتى بلغه موت يزيد، وهذا معنى كونه إماماً، وخليفة وسلطاناً .

وأما كونه براً أوفاجراً، مطيعاً أوعاصياً، فذاك أمر آخر، فأهل السنة إذا اعتقدوا إمامة الواحد من هؤلاء: يزيد أوعبد الملك أو المنصور أوغيرهم، كان بهذا الاعتبار، وكذلك كونه عادلاً في جميع أموره، مطيعاً في جميع أفعاله ليس هذا اعتقاد أحد من المسلمين، وكذلك وجوب طاعته في كل ما يأمر به، وإن كان معصية لله ليس هو اعتقاد أحد من المسلمين، ولكن مذهب أهل السنة والجماعة أن هؤلاء يشاركون فيما يحتاج إليهم فيه من طاعة الله.

وكان قتل الحسين (عليه السلام) مما أوجب الفتن، كما كان قتل عثمان (رضي الله عنه) مما أوجب الفتن. وهذا كله مما يبين أن ما أمر به النبي ﷺ من الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم والخروج عليهم هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد، وأن مَن خالف ذلك متعمداً أو مخطئاً لم يحصل بفعله صلاح بل فساد، ولهذا أثنى النبي ﷺ على الحسن (رضي الله عنه) بقوله:

«إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

ولم يثن[1] على أحد لا بقتال في فتنة، ولا يخروج على أئمة، ولا نزع يد من طاعة، ولا بمفارقة الجماعة.

وقد ثبت في البخاري من حديث ابن عمر[2] عن النبي ﷺ: «أول جيش يغزون القسطنطينية مغفور لهم» فأول من غزا القسطنطينية جيش بعثهم معاوية وعليهم ابنه يزيد، وفيهم من سادات الصحابة أبو أيوب الأنصاري، فحاصروها.

(م) وأما قوله (أي ابن المطهر) «السبي والحمل على جمال بلا أقتاب».

(ت) (فالجواب): ما استحلت أمة محمد ﷺ سبي هاشمية، وإنما قاتلوا الحسين خوفاً منه، ومن أن يزيل عنهم الملك، فلما استشهد فرغ الأمر، وبعث بآله إلى المدينة، ولا ريب أن قتل الحسين من أعظم الذنوب، وفاعله والراضي به مستحق للعقاب، لكن ليس قتله بأعظم من قتل أبيه، وقتل زوج أخته عمر، وقتل زوج خالتيه عثمان.

(م) ومنها ــ أي من فضائل علي كرّم الله وجهه ــ ما رواه أحمد بن حنبل أن أنساً قال لسلمان: سَلِ النبي (ﷺ) مَن وصيُّه؟ فسأله، فقال: «يا سلمان من وصيُّ موسى»؟ قال: يوشع، قال: «فإن وصيي ووارثي علي».

(ت) هذا الحديث موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، ليس هو في مسند الإمام أحمد بن حنبل، وأحمد قد صنّف كتاباً في فضائل الصحابة، ذكر فيه فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وجماعة من الصحابة، وذكر فيه ما روي في ذلك من صحيح وضعيف للتعريف بذلك.

[نقل المامقاني في كتابهم «تنقيح المقال» (٢:١٨٤) عن محمد بن عمر الكشي ــ رأس علمائهم في الجرح والتعديل، وأول من فتح لهم باب التأليف فيه ــ ما نصه:

«وذكر أهل العلم أن عبدالله بن سبأ كان يهودياً فأسلم، ووالى علياً، وكان

---

(١) النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) كذا الأصل الذي نقل عنه المؤلف، البخاري من حديث ابن عمر، وإنما هو عنده ٧٤/٦ وليس هو من حديث أم حرام ولفظه «أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم» وقال الشراح: يعني بمدينة قيصر: القسطنطينية. وقد كان الحسن بن علي رضي الله عنهما في هذا الجيش.

يقول ــ وهو على يهوديته ــ في يوشع بن نون (وصي موسى) فقال في إسلامه في علي مثل ذلك».

فهذا نص عنهم صريح صحيح بأن مخترع لقب (الوصي) لعلي هو عدو الله ابن سبأ، وما دام خبر أنس عن سلمان مكذوباً من أساسه كما سترى، فإن الخبر اليقين هو الذي نقله المامقاني عن الكشي عن علمائهم أن صاحب الحق في هذا الإختراع هو ابن سبأ اليهودي (١).

وبذلك برأ الله نبيه من هذه التهمة، كما برأ صاحبيه أنساً وسلمان، بل برأ الله آخر رسالاته من أن توصم بهذا الاحتكار الذي تكون فيه الأمة يتيمة مسلوبة التصرف، تحت أوصياء من البشر، آخرهم لم يلد ولم يولد، وهي.. من بعدُ تائهة ضائعة راسفة في قيودها بين الأمم، بينما رسالة الإسلام جاءت لتحرير الإنسانية كلها، وإطلاق العقول في الأخذ عن ينبوع هذه الهداية العظمى بالغة راشدة ليس عليها قيّم ولا وصي إلا هذا الشرع العالي القويم].

(م) فإن قيل ــ أي إن قال الشيعة ــ: فأنتم ــ في هذا المقام ــ تسبون الرا.. وتذمونهم وتذكرون عيوبهم.

(ت) قيل ــ أي يقول السنيون ــ: ذكرُ الأنواع المذمومة غيرُ ذكر الأشخاص المعنيّة... وهم يستعينون بالكفار على المسلمين، كما جرى لجنكيزخان ملك الترك الكفار، فإنهم أعانوه على المسلمين، وأما إعانتهم لهولاكو ابن ابنه لمّا جاء إلى خراسان والعراق والشام، فهذا أظهر وأشهر من أن يخفى على أحد... ولم يُرَ في الإسلام ملحمة مثل ملحمة الترك الكفّار المسمين بالتتر، وقتلوا الهاشميين وسبوا نساءهم من العباسيين وغير العباسين، فهل يكون موالياً لآل الرسول ﷺ من يسلّط

---

(١) هذا مما نقله الأستاذ الخطيب. وكتب الشيعة حافلة بترجمة ابن سبأ، والبعض يسميه: (ابن السوداء) ولكن في العصر الحاضر كتب أحدهم منكراً وجود شخص بهذا الاسم. وأضاف إلى ذلك: ان بين الصحابة ١٥٠ صحابياً لا أصل لهم ولا وجود حقيقي.. وهذا عجيب، فمن سبقة كان يتبرأ من أقوال ابن سبأ.. وما نسب إليه. وهو عمل طيب، فما من مسلم يجب أن يلقى الله على هذه الأقوال.. وأما انكار وجوده واتهام الناس باختراعه. واضافة (١٥٠) صحابياً؟ فأمر غير طيب. واتهام المسلمين بالكذب والافتراء.

وقد اطلعت على مقال الدكتور سعدي الهاشمي في مجلة علمية ــ غاب عني اسمها الآن ــ فقال فيه أن ابن سبأ ورد في عدد كبير من كتب الشيعة المعتمدة ــ الناشر ــ

الكفار على قتلهم وسبيهم وعلى سائر المسلمين؟؟

[وصف مؤرخ الشيعة الميرزا محمد باقر الخونساري في ص ٥٧٨ من كتابه (روضات الجنات) الطبعة الثانية هذا الموقف المخزي، فقال في ترجمة شيخهم النصير الطوسي ما نصه: «ومن جملة أمره المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره (أي النصير الطوسي) للسلطان المحتشم في محروسة إيران، هولاكو خان ابن تولى خان ابن جنكز خان، من عظماء سلاطين التاتارية، وأتراك المغول، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد، لإرشاد العباد، وإصلاح البلاد، وقطع دابر سلسلة البغي والفساد، وإخماد نار الجور والالباس، بإبادة دائرة ملك بني العباس!! وإيقاع (القتل العام) من أتباع أولئك الطغام إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار، فانهار بها في ماء دجلة، ومنها إلى نار جهنم دار البوار، ومحل الأشقياء الأشرار!!!

وهذا مصداق ما قرره شيخ الإسلام (ابن تيمية) منقولا بحروفه من اعتراف الخونساري، الذي يعدّ (القتل العام) في المسلمين من أمانيّهم ورغائبهم، عاملهم الله بما يستحقون]

(ت) وكان وزير الخليفة ببغداد الذي يقال له ابن العلقمي منهم.[1]

[ووثق به المعتصم آخر الخلفاء العباسيين، فألقى إليه زمام أموره. ولما دخلت جيوش هولاكو الوثني بلاد إيران أرسل إليه ابن العلقمي يحرضه على قصد بغداد... فزحف هولاكو على بغداد في مائتي ألف من التتار والكرج وسائر يأجوج ومأجوج، ومثّل ابن العلقمي دوره في مخادعة الخليفة المستعصم، وهوّن عليه الأمر، فلما نزلت جيوش هولاكو في شَرْقي بغداد وغربيها، استأذن العلقمي خليفته بالخروج إليهم للتوسط في الصلح، وبعد أن توثق الخبيث لنفسه وكاشف المغيرين بانحيازه إليهم وخيانته لدولته، عاد فزعم للخليفة أن هولاكو يرغب في تزويج ابنته بالأمير أبي بكر ابن الخليفة!!.. ودعا الخليفة وابنه وأعيان الدولة إلى الخروج لزيارة هولاكو، كما دعا العلماء والرؤساء ليحضروا عقد الزواج بزعمه، فلما صاروا بعسكر هولاكو أمر بضرب أعناقهم، وبقيت الرعية بلا راع، ثم دخلت يأجوج ومأجوج بغداد، فوضعت السيوف في الرقاب، واستمر القتل والسبي والنهب

(١) المتوفى سنة ٦٥٦ هـ.

أربعين يوماً.

ويقال: إن هولاكو أمر بعد ذلك بإحصاء ضحايا الأمة الإسلامية هناك، فزاد عدد مَن أحصوه من القتلى على ألف ألف، وثمانمائة ألف، والذي لم يحصوه أضعاف ذلك، وقد وصف تقي الدين ابن أبي اليُسر هذه المجزرة الهمجية بقصيدة منها:

يا زائرين إلى الزوراء لا تفِدوا فما بذاك الحمى والدار ديّار

أما عدوّ الله ابن العلقمي، فخابت أماله كلها في إقامة الملك أو الإمامة لهم، واحتقره هولاكو ورجاله كما يحتقر كل خائن، وصار فيهم كمملوك من المماليك، حتى أثر عنه أنه كان ينشد: «وجرى القضاء بعكس ما أمّلته».

ثم مات كمدا، لا رحمه الله.

وهذا البلاء الأعظم الذي وقع في دولة الإسلام وأمة المسلمين على يد كفار التتار الوثنيين، هو التذي وصفه مؤرخ الشيعة الخونساري بلسان الشماتة والابتهاج، معلناً أنه ومَن على شاكلته من طائفته منحازون إلى صفوف الكفار، ومعادون لجماعة المسلمين. قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله].

(م) وقال عمر: كانت بيعة أبي بكر فلتة، وقى الله المسلمين شرها، (فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه).

(ت) قلنا: هذا القول الأخير افتراء، وإنما قال: وليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر.

ومعناه: أن بيعة الصديق بُودر إليها من غير انتظار وتريث لكونه كان متعيناً.

(م) ولم يول النبي أبا بكر عملاً قط، بل ولىّ عليه عمرو بن العاص مرة، وأسامة أخرى، ولما أنفذه بسورة براءة «ردّه بوحي من الله».

(ت) قلنا من المعلوم قطعاً أن النبي ﷺ استعمل أبا بكر على الحج عام تسع، فكان هذا من خصائصه، كما أن استخلافه على الصلاة من خصائصه، وكان علي من رعيته في الحج المذكور، فإنه لحقه فقال (أي أبو بكر لعلي رضي الله عنه): أمير أو مأمور؟ قال علي: بل مأمور. وكان علي يصلي خلف أبي بكر مع سائر المسلمين

في هذه الحجة، بل خُصّ بتبليغ «سورة براءة».

[لسببين: (أحدهما) أن في السورة فسخاً لعهود سابقة مع المشركين، ومن عادة العرب أن يتولى إعلان ذلك الرجل المطاع في جماعته، أو رجل من ذوي قرابته.

(والسبب الثاني) أن في السورة ثناء من الله عز وجل على الصديق الأعظم رضوان الله عليه، وهو قول الله جل جلاله: ﴿ألا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين، إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن، إن الله معنا﴾(1).

فكان من مناقب الخليفة الأول لرسول الله ﷺ أن يعلن هذا الثناء الإلهي عليه أخوه علي بن أبي طالب رضوان الله عليهما].

(م) وأهمل أبو بكر حدود الله، فلم يقتص من خالد بن الوليد حيث قتل مالك بن نويرة، وأشار عمر بقتله فلم يقبل.

(ت) إن كان ترك قتل قاتل المعصوم (أي معصوم الدم) (2) ما ينكر على الأئمة كان هذا من أكبر حجج شيعة عثمان على عليّ، فإن عثمان خير من أمثال مالك ابن نويرة، وقد قتل مظلوماً شهيداً، وعلي لم يقتص من قتلته، ولذا امتنع الشاميون من مبايعته، فإن عذرتموه فاعذروا أبا بكر، فإنا نعذرهما، وكذلك إنكاركم على عثمان حيث لم يقتص من عبيدالله بن عمر بالهرمزان، ثم إن عمر أشار عليه باجتهاد منه. (3)

(م) وخالف أمر النبي في توريث بنته ومنعها فدك.

(ت) قلنا: جميع المسلمين مع أبي بكر فيما فعل، (خلا الجهلة) وذلك لرواية جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا نورث» (وقد تقدم ذلك).

[زوايات هذا الحديث وما دار حوله في ص ٤٨-٥١ من (العواصم من

---

(1) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(2) اطلعني أحدهم على كتاب زعم مؤلفه أن أهل السنة قالوا بعصمة عثمان بن عفان ورفضوا عصمة علي ابن أبي طالب!! وهذه مغالطة منه، فإن العصمة هي هنا عصمة الدم، وهي لكل مسلم، ما لم يكن قصاص.

(3) ويضاف إلى ذلك، أن مالك كان محارباً، وقد أجرى الصحابة على أهل الردة بعض أحكام أهل الكفر ومن ذلك ما جرى سبيه منهم، وأن سيدنا علي بن أبي طالب، تزوج من هذا السبي أم ولده محمد بن الحنفية رضي الله عنه.

القواصم)].

(م) وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «ائتوني بدواة وبيضاء، لأكتب لكم كتاباً لا تضلون من بعدي». فقال عمر: إن الرجل ليهجر، حسبنا كتاب الله، فكثر اللغط، فقال رسول الله ﷺ: «اخرجوا عني، لا ينبغي التنازع لديّ» قال ابن عباس: إن الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب النبي صلى الله عليه وسلم.

(ت) أما قصة الكتاب فقد جاء مبيناً في الصحيحين من حديث عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه:

«ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»...

والنبي ﷺ كان عزم على أن يكتب الكتاب الذي ذكره لعائشة، فلما رأى أن الشك قد وقع، علم أن الكتاب لا يرفع الشك، فلم يبق فيه فائدة، وعلم أن الله يجمعهم على ما أراد، كما قال: «ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».

ومن توّهم أن هذا الكتاب كان بخلافة علي، فهو ضالّ باتفاق عامة الناس من علماء السنة والشيعة، أما أهل السنة فمتفقون على تفضيل أبي بكر، وتقديمه.

وأما الشيعة القائلون بأن علياً كان هو المستحق للإمامة، فيقولون: إنه قد نص على إمامته قبل ذلك نصاً جلياً ظاهراً معروفاً، وحينئذ فلم يكن يحتاج إلى كتاب.

(م) فكان (أي عمر) يعطي أزواج النبي ﷺ من بيت المال أكثر مما ينبغي، ويعطي عائشة وحفصة في السنة عشرة آلاف.[1]

(ت) قلنا: كان مذهبه التفضيل في العطاء، كما كان يعطي بني هاشم أكثر من غيرهم، ويبدأ بهم، ويقول: ليس أحد أحق بهذا المال من أحد، وإنما هو الرجل وغناؤه، والرجل وبلاؤه، والرجل وسابقته، والرجل وحاجته، وكان يعطي ابنه عبدالله انقص مما يعطي أسامة بن زيد، فوالله ما كان عمر يتهم في تفضيله لمحاباة ولا صداقة.

(١) والعطاء أكثر أو أقل مما ينبغي، أمر نسبي، ولا حد له إلا الاجتهاد والاستطاعة، ومن أولى من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بسد عوزهم!! بل ان عثمان كان يعطي زوجات النبي وبني هاشم أكثر من عمر بعد أن فتح الله له البلاد، وزادت الخيرات.

(م) وقال بالرأي والحدس والظن.

(ت) قلنا: هذا لم يختصّ به، وقد كان علي من أقولهم بالرأي، فمن ذلك سيره إلى صفين، فقال: لم يَعْهد إليّ فيه نبي الله بشيء، ولكنه رأي رأيته. وأما قتاله الخوارج فكان معه فيه حديث، وأما قتال الجمل وصفين، فلم يرو أحد منهم فيه نصاً إلا القاعدون، فإنهم رووا الأحاديث في ترك القتال في الفتنة [ومنهم سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأبو موسى الأشعري، وأسامة بن زيد وغيرهم].

ومعلوم أن الرأي إن لم يكن مذموماً فلا لوم على من قال به، وإن كان مذموماً، فلا رأي أعظم ذماً من رأي أريق به دم ألوف مؤلفة من المسلمين، ولم يحصل بقتلهم مصلحة للمسلمين لا في دينهم ولا في دنياهم، بل نقص الخير عما كان، وزاد الشر على ما كان، فإذا كان مثل هذا الرأي لا يعاب به، فرأي عمر وغيره في مسائل الفرائض والطلاق أولى أن لا يعاب، مع أن علياً شركهم في هذا الرأي، وامتاز برأيه في الدماء، وقد كان ابنه الحسن، وأكثر السابقين الأولين لا يرون القتال مصلحة، وكان هذا الرأي أصلح من رأي القتال بالدلائل الكثيرة.

ومن المعلوم أن قول علي في الجدّ وغيره من المسائل كان بالرأي، وقد قال: اجتمع رأيي ورأي عمر على المنع من بيع أمهات الأولاد (١).

(م) إن زعم أن الإمام يكون منصوصاً عليه وهو معصوم.

(ت) فليس هو أعظم من الرسول، ونوابُه وعمالُه ليسوا معصومين ولا يمكن أن ينص الشارع على كل معينة، ولا يمكن النبي ولا الإمام أن يعلم الباطن في كل معينة، وأما علي رضي الله عنه، فظهور الأمر في الجزئيات بخلاف ما ظنه كثير جداً، فعلم أنه لا بد من الاجتهاد في الجزئيات من المعصومين وغير المعصومين. وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال:

«إنكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بنحو مما أسمع، فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له

---

(١) ومن المعلوم أن المذهب الجعفري، أضاف إلى مصادر التشريع «العقل» ولا يخفى أن العقول تتفاوت ويستحيل أن تتفق في كل شيء. وعند ذلك يكون «الرأي» مرادفاً للعقل ـــ الناشر ـــ

قطعة من النار»[1].

فحكمه في القضية المعينة إنما هو باجتهاده، ولهذا نهى المحكوم له أن يأخذ ما حكم له به إذا كان الباطن بخلاف ما ظهر.

(م) وقولك: جمع (أي عمر) بين الفاضل والمفضول، (أي في الشورى).

(ت) فهذا عندك، وأما عندهم فكانوا متقاربين، ولهذا كانوا في الشورى مترددين، فإن قلت: علي هو الفاضل وعثمان المفضول، قيل لك: فكيف أجمع المهاجرون والأنصار على تقديم مفضول؟ وقال بعض العلماء: مَن قدّم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، وفي «الصحيحين» عن ابن عمر، قال: كنا نفاضل على عهد النبي ﷺ، فنقول: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، وفي لفظ: ثم ندع أصحاب النبي ﷺ فلا نفاضل بينهم، فهذا ينقل ما كان عليه الصحابة على عهد نبيهم، وظهر أثر ذلك فإنهم بايعوا عثمان من غير رغبة ولا رهبة، واتفقوا عليها... فدلّ على أنهم إنما قدموه باستحقاق، وهذا شيء إذا تدبره الخبير ازداد به بصيرة وعلماً.

(م) وأمّا عثمان فإنه ولّى مَن لايصلُح، حتى ظهر من بعضهم الفسق والخيانة، وقسم الولايات بين أقاربه، وعوتب فلم يرجع.

[كلُّ ما عزاه أعداء الصحابة إلى ذي النورين رضوان الله عليه، أورده القاضي أبو بكر ابن العربي وسماه (قواصم) وأجاب على كل قاصمة بعاصمة من الحق على أصدق المصادر وأصحها بعد كتاب الله، ومن ذلك تألف كتاب: (العواصم من القواصم) الذي علقنا عليه بما لا يترك مقالاً لقائل. فارجع إليه لتطهر قلبك من الغل للذين آمنوا من تلاميذ محمد ﷺ، وخاصة أحبابه، فإن أعداءهم شحنوا الكتب بالأكاذيب التي انتشرت، وأفسدت قلوب بعض المسلمين على سلفهم الأول، إلى أن أظهر الله الحق بكتاب العواصم من القواصم، فانتفع به الكثيرون ولله الحمد والمنة].

(تنبيه) ذكر ابن المطهر أمثلة على انحراف الخليفة عثمان، فأجاب عنها ابن تيمية، وصاحب التعليقات واحدة واحدة.

(م) وأبوبكر، وعمر، وعثمان ما كانوا معصومين اتفاقاً، وعلي معصوم، فيكون هو

---

(١) «مسند الامام أحمد» ٢٠٣/٦، ٢٩٠، ٣٠٧، ٣٠٨.

الإمام.

(ت) الرسول هو المعصوم، وطاعته هي الواجبة في كل وقت على الخلق، وعلم الأمة بأوامره أتم من علم البعض بأوامر المنتظر. فهذا رسول الله ﷺ هو المعصوم، وأوامره معلومة، فاستغنت الأمة به وبأوامره وبعلمه عن كل أحد، وأولوا الأمر منفذون لدينه ليس إلا. ومعلوم قطعاً انه كان نوابه في اليمن وغيرها يتصرفون في الرعية باجتهادهم وليسوا بمعصومين، ولم يتول على الأمة من ادُّعيت له سوى علي، وكان من نوّابه على رعيته بالبلاد النائية من لا يدري بما أمر ولا بما نهى، بل كانوا يتصرفون بما لا يعرفه هو (أي باجتهادهم).

ثم الإمام الذي وصفته، لا يوجد في زماننا، مفقود غائب عندكم، ومعدوم لا حقيقة له عند سواكم، ومثله لا يحصل له شيء من مقاصد الإمامة، بل الإمام الذي يقوم وفيه جهل وظلم (كما تدّعون) أنفع لمصالح الأمة ممن لا ينفعهم بوجه، والإمام يحتاج إليه للعلم ليبلغه، وللعلم ليطاع في سلطانه.

[إن جميع الدلائل الشرعية والعقلية والتاريخية التي في أيدينا ــ عن آخر مَن يدّعون عصمته ــ تدلّ على أنه لم يخلق، ويوم وقعت وفاة أبيه وحُررت تركته، لم تقل زوجة من أزواج المتوفىّ ولا أمة من إمائه إنَّ له ولداً منها، وحجزت أزواجه وإماؤه في منزل مدة العدَّة على احتمال أن تكون حاملاً فتلد، فمضت مدة ولم يولد له أحد. والمنزل الذي يزعمون أن فيه سرداباً كان من يوم وفاة الحسن العسكري تحت تصرف أخيه جعفر، وكان جعفر على يقين بأنه ما كان ولم يكن لأخيه ولد، وللعلويين نقابة ونقيب وسجل للمواليد، وليس فيه أي ذكر لمولود ينسب إلى الحسن العسكري.].

(م) والإمام يجب أن يكون أفضل من رعيته، وعلي فاضل أهل زمانه، فهو الإمام لقبح تقدم المفضول على الفاضل عقلاً ونقلاً.

(ت) قلنا: لا نسلم أنه أفضل أهل زمانه، فإنه قال على منبر الكوفة: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر. ثم كثير من العلماء لا يوجبون تولية الأفضل، ومنهم من يقول بولاية المفضول إذا كان فيها مصلحة راجحة كما تقول الزيدية.

(م) قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك﴾[1] اتفقوا على نزولها في عليّ، روى أبو نُعيم بإسناده الخ، ومن تفسير الثعلبي الخ، وقد روى هذا النقاش في تفسيره.

(ت) قولك اتفقوا على نزولها في علي كـ... بل ولا قاله عالم، وفي كتاب أبي نُعيم والثعلبي والنقاش من الكذب ما لا يُعَد، والمرجع في النقل إلى أمناء حديث رسول الله، كما أن المرجع في النحو إلى أربابه، وفي القراءات إلى حذاقها، وفي اللغة إلى أئمتها، وفي الطب إلى علمائه، فلكل فن رجال، وعلماء الحديث أجلُّ وأعظم تحرياً للصدق من كل أحد، علم ذلك من علمه، فما اتفقوا على صحته فهو الحق، وما أجمعوا على تزييفه وتوهينه فهو ساقط، وما اختلفوا فيه، نظر فيه بانصاف وعدل، فهم **العمدة**: كمالك، وشعبة، والأوزاعي، والليث، والسفيانين، والحمّادَين، وابن المبارك، ويحيى القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، ووكيع، وابن علية، والشافعي، وعبد الرزاق، وأبي نعيم، والقعنبي، والحُميدي، وأبي عبيد، وابن المديني، وأحمد، وإسحاق، وابن معين، وأبي بكر ابن أبي شيبة، والذهلي، والبخاري وأبي زرعة، وأبي حاتم، وأبي داود، ومسلم، وموسى بن هارون، وصالح جزرة، والنسائي وابن خزيمة، وأبي أحمد بن عدي، وابن حِبان، والدارقطني وأمثالهم من أهل العلم بالنقل والرجال والجرح والتعديل[2].

وقد صنف في معرفة الرجال كتب جمة: كالطبقات لابن سعد، وتاريخي البخاري، وكلام ابن معين من رواية أصحابه عنه، وكلام أحمد من رواية أصحابه عنه، وكتاب يحيى بن سعيد القطان، وكتاب علي ابن المديني، وتاريخ يعقوب الفسوي، وابن أبي خيثمة، وابن أبي حاتم، والعُقيلي، وابن عدي، وابن حِبان، والدارقطني.

والمصنفات في الحديث على المسانيد: كمسند أحمد، وإسحاق، وأبي داود وابن أبي شيبة، والعدني، وابن منيع، وأبي يعلى، والبزار، والطبراني والخلائق.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) أنظر تراجمهم ومنزلتهم في كتاب «الرد الوافر».

وعلى الأبواب: كالموطأ، وسنن سعيد بن منصور، وصحيحي البخاري ومسلم، والسنن الأربعة، وما يطول الكتاب بتعداده.

ثم نقول: ما يرويه مثل النقاش، والثعلبي، وأبي نُعيم ونحوهم: أتقبلونه مطلقاً لكم وعليكم، أم تردونه مطلقاً، أو تأخذون بما وافق أهواءكم وتردون ما خالف؟

فإن قبلوه مطلقاً، ففي ذلك من فضائل الشيخين جملة من الصحيح والضعيف، وإن ردوه مطلقاً، بطل اعتماده بما ينقل عنهم، وان قبلوا ما يوافق مذهبهم أمكن المخالف ردّ ما قبلوه والاحتجاج بما ردوه، والناس قد كذبوا في المناقب والمثالب أكثر من كل شيء.

ثم هذا الحديث كذب باتفاق أهل الحديث، ولهذا لم يُرو في شيء من كتب الحديث المرجوع إليها، وإنما يجوّز صدقه من يقول: إن النبي ﷺ كان على مذهب أحد الأربعة!!... أو أن قبر علي رضي الله عنه بباطن النجف، وأهل العلم يعلمون أن علياً، ومعاوية، وعمرو بن العاص، دفن كل واحد منهم بقصر الامارة، خوفاً عليه من نبش الخوارج.

[أما قصر الإمارة في الكوفة الذي دفن فيه علي كرم الله وجهه، فإنه يقع قبلي الجامع و يطل على الرحبة، و يقول مؤرخ الشيعة لوط بن يحيى: إنه دفن في إحدى زوايا الجامع على رحبة القصر بالقرب من أبواب كندة. وما زعمته الشيعة بعد ذلك من أن قبره في النجف، فهو زعم متأخر دهراً طويلاً عن زمن علي وابنيه، لأنه يرجع إلى أواخر القرن الثالث.

وقصر الإمارة في دمشق الذي يعلم أهل العلم أن معاوية دفن فيه هو (الخضراء) التي كانت تتصل بجدار القبلة من مسجد دمشق، وتمتد شرقاً إلى بركة جيرون، وغرباً إلى باب البريد، وجنوباً إلى قصر أسعد باشا العظم وما حوله].

[وأما عمرو بن العاص، فإنه لما توفي في عيد الفطر من عام ٤٣ هـ صلى عليه ابنه عبدالله رضي الله عنهما، ولم أعثر عند كتابة هذا التعليق على نص لمن قالوا: إنه دفن في دار الإمارة، والمشهور أنه دفن في سفح جبل المقطم بقرب مدخل الشِعب. وكان الصحابة يرون أن العظماء تخلدهم أعمالهم لا قبورهم، ولذلك لم

يكونوا ــ كالفراعنة والجبارين ــ يبالون بأن تقام المباني والصروح على قبور العظماء منهم والفاتحين والصالحين].

(م) روى الجمهور قوله عليه الصلاة والسلام: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض». وقال: «أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق» وسيد أهل بيته علي، فيكون واجب الطاعة على الكل فيكون الإمام.

(ت) قلنا: إنما لفظ الحديث في مسلم، عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بخم، فقال: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله» وأما قوله: «وعترتي» فهذا رواه الترمذي، وتفرد به زيد بن الحسن الأنماطي عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر. والأنماطي قال فيه أبو حاتم: منكر الحديث [و يعده الشيعة منهم، وله ترجمة عند المامقاني (١:٤٦٢). لكنه غير محمود عندهم ولا عندنا].

وأما حديث سفينة نوح، فغير صحيح، ولا هو في شيء من الكتب المعتمدة.(١)

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لن يتفرقا» يدل على أن إجماع العترة حجة، وهو قول طائفة من أصحابنا وذكر القاضي في «المعتمد»: والعترة هم بنو هاشم كلهم، ولد علي، وولد العباس، وولد الحارث بن عبد المطلب، وسيد العترة هو رسول الله ﷺ وكان ابن عباس أفقه العترة، وكان يخالف علياً في مسائل، وعلي ما كان يوجب على أحد طاعته فيما يفتي به.

(١) بل تتناقله بعض الفرق بأسلوب فج ، وقد اطلعت على رسالة سخيفة ، عجبت بعد اطلاعي عليها كيف ينتصر فيها من كان له عقل.

الخـاتمة

كل عاقل يعلم أن أهل الدين والجمهور ليس لهم غرض ــ والله ــ لا مع علي ولا مع غيره، ولا غرضهم تكذيب نبيهم، ولا رد ما أمر به، ولو علموا أن الرسول نص لهم على علي لكانوا أسبق شيء إلى أمره وإلى التصديق به، غاية ما يقدر أنه خفي عليهم هذا الحكم فكيف يكون من خفيَ عليه جزء من الدين مثل... بل يكفي من وضع.. قول المصطفى ﷺ: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، نعم، ومن كتم ما نص عليه الرسول مراغمة لله ورسوله فهو من أصحاب النار.

(م) المنهج الرابع في الأدلة الدالة على إمامته من أحواله، فذكر أنه كان أزهد الناس وأعبدهم، وأعلمهم وأشجعهم. وذكر أنواعاً من خوارق العادات له.

(ت) بل كان أزهدَ الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، فإنه كان له مال يتجر به، فأنفقه كله في سبيل الله.[1]

قال ابن زنجويه[2]: كان علي فقيراً في أول الإسلام، ثم استفاد الرباع والمزارع والنخيل، واستشهد رضي الله عنه وعنده تسع عشرة سريّة وأربع نسوة. وقال شريك عن عاصم بن كليب، عن محمد بن كعب سمعت علياً يقول: لقد رأيتني على عهد رسول الله ﷺ أربط الحجر على بطني من شدة الجوع، وإن صدقة مالي لتبلغ اليوم أربعين ألفاً.

ثم قد كان لأبي بكر من الولد مثل عبد الرحمن، ومن القرابة مثل طلحة أحد العشرة، فما استعمل هذا ولا هذا في جهاته، وهي مكة والمدينة واليمن وخيبر

---

(١) [أخرج أبو داود في الزهد بسند صحيح عن هشام بن عروة، أخبرني أبي قال: أسلم أبو بكر وله أربعون ألف درهم، قال عروة: وأخبرتني عائشة أنه مات وما ترك ديناراً ولا درهماً. ومن طريق أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه: كان أبو بكر معروفاً بالتجارة، ولقد بعث النبي ﷺ وعنده أربعون ألفاً، فكان يعتق منها و يعول المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف، وكان يفعل فيها كذلك].

(٢) هو حميد بن مخلد الثقة الثبت الحجة الحافظ، توفي سنة ٢٤٧.

والبحرين وحضرموت وعُمان والطائف واليمامة، ثم جرى عمر على مجراه، ولم يستعمل من بني عدي أحداً على سعة عمله، وقد فتح الشام ومصر والعراق إلى خراسان، إلا النعمان بن عدي العدوي وحده ــ على ميسان ــ ثم أسرع عزله، فكان فيهم مثل سعيد بن زيد أحد العشرة، وأبي جهم بن حذيفة، وخارجة بن حذاقة، ومعمر بن عبدالله، وولده عبدالله بن عمر. ثم كل منهما لم يستعمل ابنه من بعده على الأمة...

وجدنا علياً استعمل أقاربه: ابن عباس على البصرة، وعبيدالله بن عباس علي اليمن، وقُثَم ومعبداً ابني عباس على الحرمين، وابن أخته جعدة بن هبيرة على خراسان، وابن امرأته وأخا ولده محمد ابن أبي بكر على مصر، ورضي بيعة المسلمين لابنه بعده، ولسنا ننكر أهليته وزهده وعظمته، ولا أهلية عبدالله بن عباس للخلافة، ولكنا نقول: إن أبا بكر وعمر أتم زهداً وأعزف عن الدنيا من زاهد بفعل المباحات.

(م) وبالجملة، زهدُه لم يلحقه أحدٌ فيه، ولا سبق إليه، وإذا كان كذلك كان هو الإمام.

(ت) قلنا: كلا المقدمتين باطلة: لم يكن أزهد من أبي بكر (كما تقدم) ولا كل من كان أزهد كان أحق بالإمامة، وقال علي: لا يبلغني أن أحداً فضّلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حدّ المفتري، وقد رُوي عن علي من نحو ثمانين وجهاً أنه قال على منبره: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر. وقال البخاري: حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سفيان، حدثنا جامع بن شداد، حدثنا منذر الثوري، عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: يا أبتِ من خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ قال: يا بني أو ما تعرف؟ فقلت: لا، فقال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر.

ثم عقد ابن المطهر فصلاً في الكلام على إمامة أبي بكر، وإليك مثلاً منه وجوابه:

(م): واحتجوا بالاجماع، والجواب منعه، فإن جماعة من بني هاشم لم يوافقوا على ذلك، وجماعة كسلمان وأبي ذر والمقداد وعمار وحذيفة وسعد بن عبادة، وزيد ابن أرقم، وأسامة، وخالد بن سعيد بن العاص... وبنو حنيفة كافة، ولم يحملوا

الزكاة إليه، حتى سمّاهم أهلَ الرِّدَّة وقتلهم وسباهم، فأنكر عليه عمر، وردّ السبايا أيام خلافته.

(ت) أفسُمِعَ قطُّ بمثل هذا؟: فقد عَلِمَ كلُّ عالم كفر بني حنيفة أتباع مسيلمة وارتدادهم، وهذا يعدُّهم من أهل الإجماع، وإنما قتلهم وسباهم لامتناعهم عن بيعته، ولأنهم لم يحملوا الزكاة إليه!! فنعوذ بالله من البهتان:

إذا محـاسني الـلاتي أدلُّ بهـا كانت ذنوباً فقل لي: كيف أعتذر

ومن أعظم مناقب الصديق قتل أولئك الأرجاس وسبيهم، وما قاتلهم على منع زكاة، بل على إيمانهم بمسيلمة، وكانوا نحو مائة ألف، والحنفية سريّة عليّ ــ أم محمد ابن الحنفية ــ من سبيهم.

[وتسرّي علي بها اعتراف منه بشرعية حكم أبي بكر وحروبه ونتائجها (انظر رسالة مؤتمر النجف ص ٣١)].

فأما الذين قاتلهم على منع الزكاة فطوائف من العرب غير بني حنيفة استباحوا ترك الزكاة بالكلية فقاتلهم... فأمر بني حنيفة قد خلص إلى العذارى في الخدور، وكتاب «الردة» لسيف بن عمر مشهور، «والردّة» للواقدي.

ثم قولك: إن عمر أنكر قتال أهل الردة وردّ عليهم... من البهتان، وإنما توقف مع الصديق في قتال مانعي الزكاة فناظره، فرجع عمر إلى قوله. وأما الذين سميتهم وأنهم تخلفوا عن بيعة الصديق... ما تخلف إلا سعد بن عبادة، ومبايعة هؤلاء لأبي بكر ثم عمر أشهر من أن تنكر.

والكلام في إمامة الصديق إما أن يكون في وجودها، وإما أن يكون في استحقاقه لها.

(أما الأول) فهو معلوم بالتواتر واتفاق الناس بأنه تولى الأمر، وقام مقام رسول الله ﷺ وخلفه في أمته، وأقام الحدود، واستوفى الحقوق، وقاتل الكفار والمرتدين، وولي الأعمال، وقسم الأموال، وفعل جميع ما يفعل الإمام، بل هو أول من باشر الإمامة في الأمة.

(والثاني) وأما إن أريد بامامته كونه مستحقاً لذلك، فهذا عليه أدلة كثيرة غير الإجماع، فلا طريق يثبت بها كون علي مستحقاً للإمامة إلا وتلك الطريق يثبت بها أن أبا بكر مستحق للإمامة، وأنه أحق بالإمامة من علي وغيره. وحينئذٍ فالإجماع

لا يحتاج إليه لا في الأولى ولا في الثانية، وإن كان الإجماع حاصلاً....

فمن تأمل وجد فضائل الصدّيق كثيرة، وهي خصائص له، مثل﴿ (إن الله معنا ﴾[1] وحديث المخالّة[2]، وحديث أنه أحبُّ الرجال إلى رسول الله ﷺ، وحديث الإتيان إليه بعده [أي حديث المرأة التي قال لها النبي ﷺ: إن لم تجديني فأتي أبا بكر، وهو في الصحيحين] وحديث كتابة العهد له، وحديث تخصيصه بالصديق ابتداء والصحبة، وتركه له، وهو قوله: «فهل أنتم تاركو لي صاحبي» وحديث رفعه عنه عقبة بن أبي مُعيَط إذ وضع الرداء في عنقه، وحديث استخلافه في الصلاة والحج، وشأن ثباته بعد وفاة الرسول ﷺ وانقياد الأمة له، وحديث خصال الخير التي اتفقت له في يوم.

ثم له مناقب يشركه فيها عمر، كحديث شهادته بالإيمان له ولعمر، وحديث علي يقول: كثيراً ما كنت أسمع النبي ﷺ يقول: «خرجت أنا وأبو بكر وعمر» وحديث نزعه من القليب، وحديث: «إني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر»... وللصديق في الصحاح نحو عشرين حديثاً، أكثرها خصائص، فمناقبه جمة، وفضائله عدة، استوجب بها أن يكون خليل رسول الله ﷺ دون الخلق لو كانت المخالّة ممكنة. فلو كان مبغضاً له كما يقول.. لما حزن، بل كان يظهر الفرح والسرور، فأخبر الرسول ﷺ أن الله معهما، وهذا إخبار بأن الله معهما بنصره وحفظه، ومعلوم أن أضعف الناس عقلاً لا يخفى عليه حال من يصحبه في مثل هذا السفر الذي قد عاداه فيه أولئك الملأ، فكيف يصحب واحداً ممن يظهر له موالاته دون غيره، وهو عدو له في الباطن. هذا لا يفعله إلا أغبى الناس وأجهلهم، فقبح الله من جوّز هذا على أكمل الخلق عقلاً وعلماً.

(م) وأما إنفاقه على الرسول فكذب، لأنه لم يكن له مال.

(ت) من أعظم البلايا إنكار المتواتر المستفيض القطعي، فمن ذا الذي نقل من الثقات أو الضعفاء ما زعمت.. أينكر جود حاتم، وشجاعة علي، وحلم

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(٢) أي قوله صلى الله: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلاً...» شرح العقيدة الطحاوية ٦٧٩.

معاوية، وغنى أبي بكر وفضله؟ بل هؤلاء لا ذكر لهم في القرآن، وأما هو، ففيه نص صريح بفضله وغناه.

ففي «الصحيحين» أن مسطحاً كان أبو بكر ينفق عليه، وكان أحد من تكلم في الإفك، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، فانزل الله قوله: ﴿ولا يأتلِ أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾[1]؟

فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحبُ أن يغفر الله لي، فأعاد عليه النفقة.

وقد اشترى بماله سبعة من المعذَّبين في الله، وقالﷺ : «ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر». ولما هاجر استصحب ما بقي من ماله، قيل: كانت ستة آلاف، وكان يتجر، وفي «الصحيحين» أن أبا بكر لما ابتُلي المسلمون بمكة، خرج مهاجراً، حتى إذا بلغ برك الغماد، لقِيَه ابن الدُّغنَّة سيد القارة، وقال: مثلك يا أبا بكر لا يَخرُج ولا يُخرجُ، إنك تكسب المُعدِم، وتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وإني لك لجار، ارجع، واعبد ربك ببلدك، فرجع به ابن الدغنة، وطاف في قريش فأجاره، فقالوا له: مُرْ أبا بكر فليعبد ربّه في داره، ولا يؤذنا ولا يستعلن بعبادته، فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.. الحديث بطوله.

وقد قال النبي في مرضه ذلك على ما في «الصحيحين» عن عائشة أنه قال: «ادعي لي أباكِ وأخاكِ حتى أكتب لهم كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمنٍ و يقول قائل: أنا أولى، و يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».

فهذا من إخباره بالكوائن بعده، ولهذا أعرض عن الكتابة لأبي بكر لمّا علم أن الله يجمعهم عليه، وأن المؤمنين يبايعونه ولا يختلفون عليه، لا في الأول ولا في الآخر عندما استخلف عليهم بعده خيرَهم، أماتنا الله وإياكم على حبّ الأربعة، فإن المرء مع مَن أحب.

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٢.

آخره والله أعلم

هذه شذرات اخترناها ولخصناها من ذلك المجلد الضخم «المنتقى» بلا تعليق منا عليها، وهي تنوه بمزايا الخلفاء الثلاثة ومحاسنهم، وتنفي النقائص التي ألحقت بهم، وتطري ما للصحابة الكرام من فضل الصحبة، ونشر الدعوة، وإقامة الحجة، وإثبات الأخوة الصادقة بين الأئمة أبي بكر وعمر وعلي، وتفضيله لهما على نفسه، وإرسال ولديه الحسن والحسين إلى عثمان شهيد الدار، محافظة عليه ودفاعاً عنه (رضوان الله عليهم) ونفيه الكفر والنفاق عن محاربيه، كما تراه في نهج البلاغة وغيره.

وبعد هذا كله، إن لم يعمل محبوه ومواولوه بنصحه وتذكيره، يتبين أنهم لا يقيمون لرأيه وزناً، ولا يرفعون به رأساً، وإنك لتجد في هذا «المنتقى» من «منهاج السنة النبوية» جواباً لكل سؤال، وحلاً لكل إشكال، وبياناً للحق في كل ما يخوض به الخائضون، مثل: الميراث من (فدك) التي جرى فيها الإمام علي على خطة الخلفاء من قبل، ومثل حكمه العادل في وقائع الجمل والنهروان وصفين، ونفي سمة الكفر عنهم، على خلاف حكم من ادعى التشيّع له في هذه الكتب المنشّرة التي تبدي وتعيد، وتطبع وتوزع وليس فيها من جديد.

ألا وأن جواب إمام السنة ابن تيمية الحراني الدمشقي لإمام الشيعة الأمامية ابن المطهّر الحلي البغدادي هو كاف واف بالموضوع. وإني أنصح لمن يقدر وقته حق قدره، ويعرف قيمة عمره، أن لا يضيعه بقراءة الكتب الطاعنة اللاعنة، فهي ظالمة آثمة، وما أثرناه عن «المنتقى» فهو الجواب الصحيح الذي نرجو أن تجتمع عليه كلمة الأمة إن شاء الله وبه المستعان.



فَهرِسُت المَوضُوعَات

رقم الصفحة | الموضوع